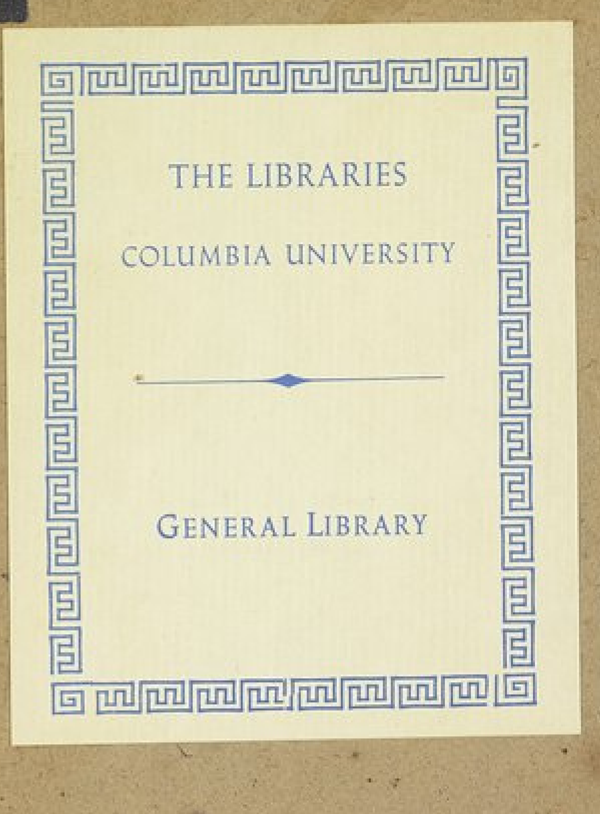
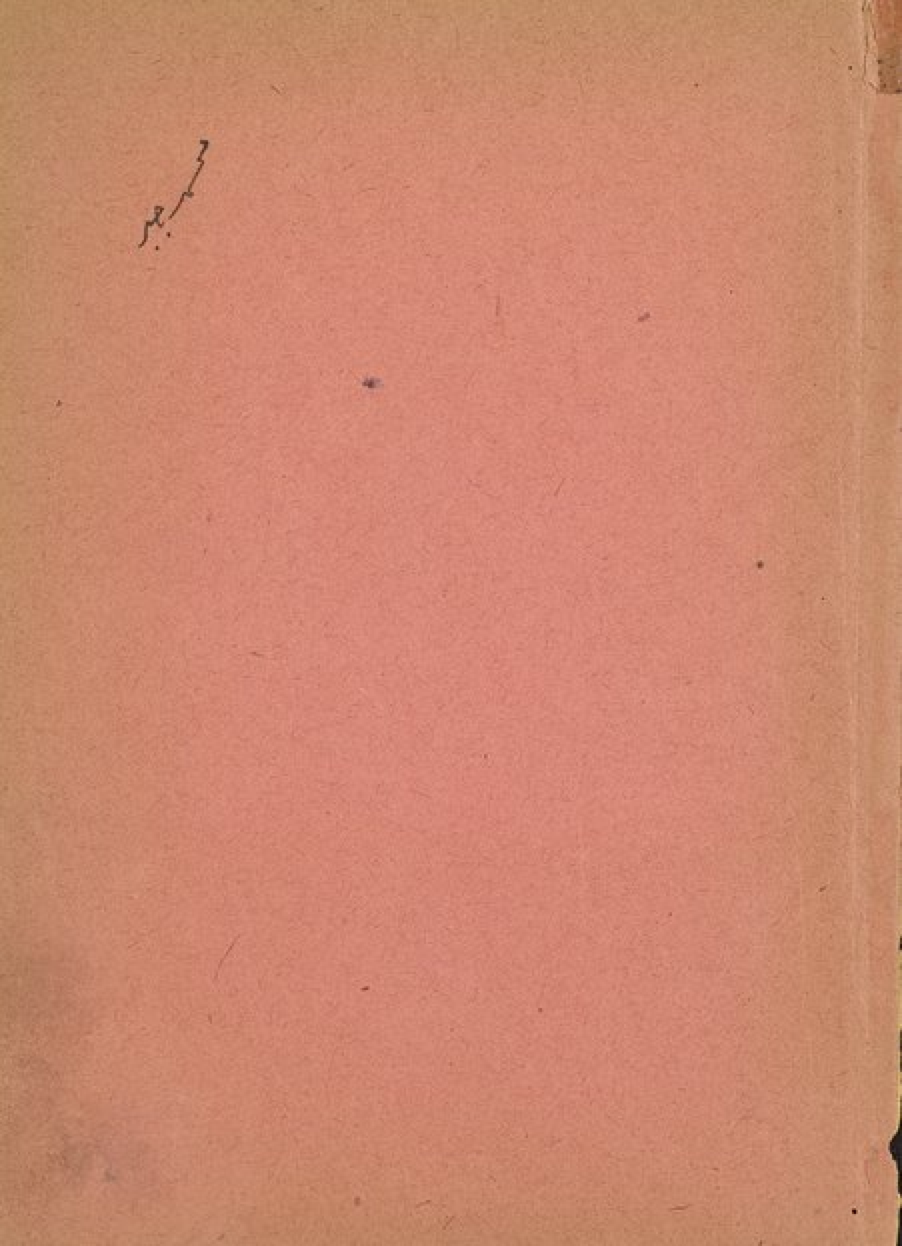



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY





(الجمانة العثمانية)

« تأليف »

(جرجس خولي)

(طبعت بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٣١٥ هجريه)

بسم الله الرحمن الرحيم

(المقدمة)

انني أفتتح كلامي بالحمد لله الواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . وبعد فلما كان خير الاعمال ما انصرف في سبيل خدمة الوطن ونبه الاذهان الى حيث تكمن الاضرار والرزايا رأيت على قصر باعي وقلة بضاعتي ان أطرق باب هذه الخدمة الكريمة مع من طرقه من ذوي الفضل لعلمي ان القيام بالمواجب الوطنية فرض واجب على كل فرد منا مهما كانت بضاعته مزجاة . ومعلوم ان فضلاء هذا العصر عندنا قد طرقوا لهذه الخدمة الجليلة أبوابًا متنوعة جاءت البلاد بفوائد جزيلة

الا انهم حذوا في ذلك حذو أفاضل المغرب فـلم يهتموا للدخول فيها من أبوابها الدينية . واذ كنا نحن الشرقيين في حاجة شديدة الى تأييد أشيائنا الدنيويه بادلة دينية لما ان الاكثرين عندنا يأبون الا تعليق أعمالهم كلها بالدين كان الدخول في هاتيك الخدمة من أبواب دينيـة أقوى على تنبيه الاذهان الى الحقائق وأدعى الى الاصغاء . فلذا لم أر بداً من اسناد الكثير من مواضيع هذه الجمانة الى براهين دينية فجاءت بحوله تعالى على وفق المراد يأنس بها كل عثماني على اختلاف الاديان والمذاهب . وقد بذلت قصاري جهدي في جعلها رائقة الاسلوب طليـة المبحث صريحـة العبارة واضحة اللفظ بحيث يمكن للمطالع من العامة ان يقرأها كلها دفعة واحدة بدون ملل وبدون ان يتعذر عليه فهم شيء من معناها فهي من هذا القبيل أشبه بالقصص التي يرغبون في قراءتها وهي على ماسيكون عليها

منهم من الاقبال والتهافت فلا تقصر عن جذب أنظار الخاصة اليها . ذلك هو المقصود منها ان تقع لدى أبناء الوطن موقع القبول على اختلاف الطبقات والدرجات . على انها على بسط عبارتها وخلوها من التعقيد فهي محتاجة الى التمعن فيها فقد تقرأ موضوعاً واحداً في مكان منها ثم تأتي على نحوه في مكان آخر فيخال لك ان بينهما تناقض والواقع غير ذلك لان غرض الجمانة واحد ولكنها لما كانت صغيرة الحجم جامعة لمواضيع كثيرة ذات شعب متفرقة مما يضيق عنه حجمها كان لا بد من خيلة التناقض خصوصاً وان لكل مقام مقال فقد يستلزم الموضوع الواحد في مكان كلاماً لا يستلزمه في مكان آخر . على اني قد جعلت لها خاتمة أوضحت مواضيعها باسلوب وجيز صريح يمكن المطالع من الوقوف على غرض الجمانة وفحواها بكل سهولة فالذي يقرأها ثم يأتي على الخاتمة يجد فيها خلاصة

ماقرأه - هذا وقد بنيتها على خمسة مواضيع كبرى تتعلق
باحوالنا الشرقية مما لابد لنا من الاهتمام به قاصراً البحث
على الاهم مما لدينامن ذلك بقدرمااحتمله المقاموسمحت
به شرائع البلاد. على اني قد أتيت فيها من باب الاستطراد
على بعض مباحث طفيفة لا أهمية لها في نفس الامر الا
انها مع ذلك كبيرة الفائدة بالنظر الى مالدينا من أساطير
الاولين خصوصاً وقد لايعدم الصغير الدلالة على ماهو
أكبر منه - اما مباحثها الدينية فهي على غاية ما يمكن من
الصراحة والاخلاص اذ ليس لي هنالك من غرض غير
القيام بما هو مفروض علينا كلنا . ولدى التأمل في تلك
المباحث يتضح للمطالع ان تعاليمنا الدينية على اختلاف
أدياننا لاتختلف من حيثية القيام بمواجب الدنيا وعليه فلا
يتأتى للغرض الديني ان يجد في هنالك مكاناً يأخذني منه
من حيث لا أدري لانني لم أخرج في هاتيك المباحث عما

يتعلق بالاحوال الدنيويه" وسيتضح كل ذلك لدى المطالعة هذا وأرجو ان يكون مبحث الجمانه" باباً جديد يدخله الافاضل من المشارقة لانه أشد وقعاً في الاذهان ملتمساً من الله سبحانه ان يجعلها نافعة لابناء وطني خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل .

هذا وان لنا بهمة وحكمة جلالة سيدنا ومولانا وولي نعمتنا صاحب الخلافة العظمى أميرنا ومليكنا وسلطاننا عبد الحميد الاعظم خير تقدم وفلاح . نسأل الله الكريم المنان ان يحفظ لنا ذاته المقدسة الشاهانية وان يوطد عرشه الاسنى ويؤيد شأنه الاسمى ويرفع بالعز والنصر أعلامه اللهم أمين .

(التحزب الديني واضراره)

ليس من آفة للفلاح أشد وطأة من التحزب الديني ولا شيء أقوى على قلب أعمدة الهيئة الاجتماعية وتخزيبها من الاميال المذهبية ولا احط بالرعيـة المتألفة من أديان ومذاهب مختلفة وأدعى الى انقسامها وتحامل بعضها على بعض من اتخاذ العصبة الدينية مركزاً تنتهي اليه الاعمال فالويل لرعية هذا حالها فانها تمسى مطمعاً للامم الغريبة اذ لن تنفك حليفة الضـعف والتقهقر مهما كانت متذرعة باسباب التقدم

ولأمر مقرر ان لاسبيل الى الجمع بين التمدن الحديث وبين التعصب الملم بنا بحيث يكون الواحد منهما لايكون الآخر البتة فالشعب الذي يدعي التمدن وينقسم الى احزاب دينية ومذهبية بعضها ضد بعض يعد تمدنه

ضرباً من الحماقة والجهل ومن الغريب اننا على قرب نور المعارف منا وتخلل أشعته بيننا فلا نزال خابطين في ظلمة التعصب الوخيم حتى كأن على عيوننا غشاوة أو ان قلوبنا مختوم عليها فلم نعد نفرق بين النور والظلمة

لا جرم ان ما لدينا من الضغائن الدينية والمذهبية الباعثة على انقسامنا الى فئات متعددة يفصلها التعصب الذي أودى بكثيرين قبلنا في العصور الغابرة كما يشهد التاريخ يعد في هذه الايام من العلل المهلكة التي تستوجب الاهتمام بما يقطع جرثومتها تخلصاً من فتكها الذريع لان أقل ما في التعصب انه يلقي النفرة التي من شأنها ان تزعزع أركان المجتمع الانساني وقد قيل «لولا الوئام لهلك الانام» . ولا يخفى ان لا تقدم ولا فلاح حيث لا هيئة وطنية تسعى وراء المصالح العمومية كما يسعى كل فرد نحو مصلحته شأن التعصب الجنسي المعمول به عند الامم المتمدنة الذي لا سبيل الى

الفلاح بدونه . فمن الحماقه تغافلنا عن هذا واستمرارنا
على ذلك القتال الذي أمات منا كل ذرة وطنية . والغربيون
لم يظفروا بالاتحاد الجنسي حق الظفر الا بعد ان نبذوا
التعصب الديني وأغفلوه نسياً منسياً كأنه لم يكن شيئاً
مذكوراً . وليس القصد بنبذ التعصب ترك الدين كما فعل
أكثرهم لان الدين لله وحده وهو الذي تبارك شأنه قد
وضعه مختلفاً فنحن لسنا مكلفين سوى للعبادة التي من
شأنها على اختلاف اساليبها دعوة الناس الى موائد الحب
والولاء

ومن عوائدنا المستهجنة ان يسأل احدنا الآخر عن
دينه لغير سبب موجب وأقبح من ذلك ان يتساءل
مسيحيان عن مذهب كل منهما مع اننا والحمد لله كلنا نعبد
الله جل جلاله فليس بيننا من يعبد القمر أو الحجر وهب ان
هنالك من كان كذلك فماذا يعنينا ونحن في عصر قد خففت

فيه رايات الاديان لاسيما ولسنا بمندوبين الى الجهاد في سبيل الدين لان تلك الندبة انما خصت بالانبياء الكرام وبمن قاموا باتمام الدعوة الدينية من بعدهم . ألسنا جميعنا نحن المستظلين بظل هذه الراية الحمراء التي نسأل الله ان يجعلها خافقة بالنصر رعية واحدة وجنساً [١] واحداً مهما اختلفت اديانا ولغاتنا فكم أحرى بنا ترك هذا النفور والعداء والتمسك باسباب العز والمنعة الذين لا يتوفران الا بالانضمام والاتحاد وأيم الحق انه لقبيح بنا جداً ان نكون من أبناء العصر التاسع عشر وفينا مثل هذه العوائد السمجه فما كان أجدر بنا لو نبذناها ظهرياً وعكفنا على التخرج في مخارج التمدن الصحيح لعلنا نغلق ابواب التحرش دون

---

(١) انا ولئن كنا مؤلفين من لفيف مختلط فنحن مسئولون دينياً وسياسياً عن الانضمام والاتحاد قضاء لمصالحنا الوطنية وقياماً بحقوق الجنسية العثمانية بالنظر الى كوننا رعية دولة واحدة ايدها الله

أولئك الذين يتخذون هذه الاسباب وما شاكلها ذريعة للتداخل في شؤوننا ناهيك ما لدينا من الافتقار ازاءهم الى تعزيز الارتباط الجنسي والانضمام الى الجامعة العثمانية والا صرنا الى مالا يحمده الاحفاد من بعدنا

لاجرم ان امرءاً يتخذ الغرض الديني محوراً تدور عليه أعماله بين الناس لجدير بأن يعلق في عنقه حجر رحى ويطرح في البحر لان هلاك واحد عن الشعب خير من ان يهلك الشعب كله . والحق يقال ان أعظم ذنب يأتي به أولئك المجرمون الذين يقعون تحت طائلة مجازاة الحكومة لا يوازي الطفيف مما يصدر عن ذلك الغرض لان أدنى حركة تنشأ عنه لا يخلو أمرها من القاء النفرة وتكدير مجاري الراحة . فان لم نلبي حكومتنا السنية الراغبة في استئصال جرثومة هذا الداء المزمن الذي قد سري سمه في عروقنا مع الدم فما من قائمة يرجى لنا قيامها البتة

وأنى يكون لنا ذلك وليس بيننا الا كل مكفر للآخر واغر الصدر عليه مما يضحك منه الولد الصغير ويبكي له الشيخ الكبير

هذا وليس المراد هنا التوسع في تبيان الاضرار الناجمة عن الاغراض الدينية لان ذلك يعد من باب تحصيل الحاصل اذ لا يظن بوجود من يجهل بيننا هاتيك الاضرار ولو كان من أدنى عامتنا فهماً واسماهم جهلا . ولكنما اذا قلنا ان التعصب مضر بالناس أدباً وسياسة وديناً وجب علينا ان نأتي على مايبين لنا صحة هذا القول حتى يتأكد لاصحاب تلك الاغراض كيفية هذه الاضرار ومواقعها لان السواد الاعظم عندنا يجهلون مواقع الضرر

فالعارفون بمرامي التعاليم الدينية يقولون ان التعصب الذي نحن بصدده غير جائز دينياً اذ مامن ديانة من الاديان الثلاثة العظمى أمرت به فان وجد هنالك شيء

يوهم الدلالة عليه فلغاية اقتضتها المصلحة الدينيـة وليس
يخاف ان الاولى منها وتعرف باليهوديه شريعة قديمة
سنها الله على قوم كانوا عائشين تحت ظـل العبوديه التي
من شأنها ان تنحدر بأهلها في دركات الجهل والخشونه
فلذا ان ما نراه فيها من التعاليم المغايرة لتعليم الانجيل الآمر
بمحبة العالم أجمع لم تكن الا لمقاصد اقتضتها حكمة الله
وفقاً لمشارب القوم وأخلاقهم الغليظة وقياماً بما تدعو اليه
المصلحة الحربية اذ كان نبي الله موسى مزمعاً ان يدخـل
بالشعب الاماكن الغريبة الموعود بها ويتخذها لهم مواطن
بعد استخلاصها من الامم قهراً وعنوة مما يقضي بالتحزب
والتحامل عليهم وقهرهم وغرس بغضتهم في قلوب الاسرائيليين
والا فحاش لله وهو سبحانه لم يضع الدين حتى جعله مناراً
للآداب ومعراجاً للفضائل ان يعلم شعبه تعليما يفضي بهـم
الى حال الخشونه والبربريه

ولا مراء ان التعاليم الدينية اختلفت باختلاف أخلاق الامم التي جاءتها الكتب المنزلة والانجيل نفسه شهد بذلك فالسيد المسيح عند ما اعترضه بعض من اليهود لانه يعلم خلاف ماعلمهم النبي موسى قال لهم ان موسى علمكم بحسب غلاظة عقولكم . ذلك مايدلنا دلالة واضحة على ان الله جلت حكمته أمر رسله الاطهار ان يأخذوا الناس من حيث المأخذ الاقرب وفقاً لاحوالهم وظروفهم مما لاشبهة فيه

ولا خفاء ان الشريعة الدينية تأتي فتجد شرائع وعوائد خارجة عن الآداب والتقوى متمكنة راسخة بحيث يصعب نقضها فيقبلها التعليم الديني ولكن الى حين اذلا ينفك عاملا على تغيير هيئتها بتقدم الناس في الآداب والمعارف فبناء عليه لايجوز لنا ان نعامل الناس بمعاملات دينية ليست مما يدل على صلاح وتقوى خصوصاً اذاكانت

مقصورة على الاضرار والاذى مالم نسأل عنها علماءنا حتى اذا أباحوها لنا عاملنا الغير بمقتضاها والا فلا لان في الكتب الدينية كثيراً من التعاليم التي جاءت بحالة اضطراريه اما اتباعاً لعوائد قديمة راسخة أو لغرض ديني اقتضته المصلحة مما لا يمكن لنا الاهتداء اليه الا بارشادات أولئك الاعلام الراسخين في العلم • على اننا اذا عرفنا ان الدين لا يخرج عن مقتضى الادب والانسانية والتقوى فلا يصعب علينا كيفية السلوك بما يرضى الله والناس

لقد جاء في التوراة ان الشعب الاسرائيلي طلبوا من المصريين يوم خروجهم من مصر بأمر نبي الله موسى أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وان الرب أعطى نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاورهم فسلبوا المصريين • ترى هل يمكن لعالم من أحبار اليهود ان يبيح لاسرائيلي بمقتضى ذلك ولو كان محتاجاً على أهبة سفر أن يسلب

أشياء الناس بطريقة العاريه أو بطرق أخرى لا لعمر الحق وانما كان ذلك لامر اقتضته الحكمة الالهية الغير المدركة فلك أن تقيس على ما تقدم كل ما جاء في كتب الدين مؤذناً بالمضرة أو مغايراً للتقوى التي هي مراد الحق سبحانه من عباده

اما استعداد الامم الذين بشروا بالانجيل للاصغاء الى كل تعليم جديد لما كان ايامئذ من انتشار المعارف اليونانية والتمدن الروماني فقد ساعد كثيراً على قيام الديانة المسيحية بالوعظ والكرازة وان تكون متجهة نحو السلام متفرغة بجملتها لتعليم الآداب وغرس العواطف السامية في القلوب غير مضطرة الى مراعاة غرض دنيوي بحكم الضرورة مما اضطر اليه غيرها على نحو ما مر بنا . فالانجيل من هذه الحيثية يأخذ دستوراً للمعاملات الادبية التي يجب ان نعامل بها بعضنا بعضاً

ولسنا نريد بما تقدم الاقتصار في الادب الديني

على الانجيل وحده دون سواه - لان في غيره من الكتب المنزلة كثيراً من التعاليم الادبية الشائقة التي تأمر الناس بالعفو والمعروف والاحسان وتنهاهم عن المنكر وكلها آيات بينات عاملة على وجوب الاغضاء عما جاء به غيرها مؤذناً بغير التقوى - وانما أردنا ان نتخذ الانجيل مثالا لموضوعنا في عدم جواز التعصب لانه خال من التعليم به لما انه كما تقدم لم يضطر الى مراعاة أغراض دنيويه تدعو تارة الى التعليم بما يغاير التقوى . على ان الحق سبحانه وتعالى أبى حتى في أماكن الاضطرار الا التنبيه على ترجيح جانب التقوى كما دل على ذلك القرآن الشريف . ترى على أي شيء نحمل قوله تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وهو سبحانه وتعالى وتبارك شأنه قد قال في انجيله الطاهر «لا تقاوموا الشر» فهل من محل هناك يحمل عليه هذا الخلاف غير مادعت اليه بواعث

دنيوية لم يتأت للمصلحة الدينية الا السلوك بمقتضاها.

لا جرم ان تعاليمنا الدينيـة على اختلافها في احكام العبادة لاتختلف في ماهو متعلق منها بالامور الدنيوية خصوصاً في ما تعلق بالمعاملات لان الادب الديني واحد عند الله فلا يختلف باختلاف اديانه فان رأيت هنالك اختلافاً فاحمله على الضرورة ولاتخش اثماً لان الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . على ان الانجيل قد جعل حسن المعاملة أعظم أركان الدين بل قد جعله الدين نفســه واليك تعليمه في هـذا الموضـوع بحروفه وهو «فكل ماتريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم لان هذاهو الناموس والانبياء» فقوله هنا «لان هذا هو الناموس والانبياء» يدل دلالة قاطعة ان من أجل المعاملة قد أنزل الله كتبه وبعث أنبياءه . ذلك هو تعليم الانجيل الذي حدا بنا الى القول باتخاذه دستوراً للمعاملات الشريفة فتأمل

ولا يخفى ان الانجيل لم يقف عند حد الخلو من التعليم بالتعصب بل قد جاوزه مسافات شاسعة تقضي بالعجب العجاب لان التعاليم الادبية التي جاءت فيه بالغة من التناهي شأواً بعيداً جداً يقف عنده المتأمل مندهشاً مبهوتاً كيف لا ومن تعاليمه مايفيد ان من خدش محيا الادب بأقل كلمة مغايرة وجبت عليه نار جهنم . فالانجيل من هذه الحيثية حري بأن يحتضنه كل انسان في العالم عموماً وكل عثماني خصوصاً وينكب على مطالعته حتى يستقر معناه الادبي [١] في اعماق دماغه فيتعلم اذ ذاك كيف يجب ان يعامل الناس

لاجرم ان ماجاء به غيره من الكتب المنزلة ممايؤذن

---

(١) ان المراد هنا تبيان كيفية المعاملة مما لايتناول من التعاليم الدينية غير التعليم الادبي وحده دون سواه لان ماخرج عن ذلك ليس من مباحث الجمانة

بالتعصب بحسب الظاهر محمول على الضرورة التى دعت اليها أحوال الاسرائيلين وعوائد الجاهلية وبالمقابلة بين هؤلاء وبين الامم التى بشرت بالانجيل تتضح حقيقة الاسباب التى أدت الى تباين التعاليم الدينية من حيثية مفاد التعصب ولا اشكال في كل ذلك

وأعود فأوجه الاذهان الى المعنى المقصود مما مر بنا آنفاً حتى لايخال لاحد ان وراء كلامي مايشير الى أفضلية دينية مما ليس من الموضوع في شيء خصوصاً واني ممن تأبى طباعهم البحث في ذلك وعندي ان الله لايطالب العبد بأكثر مما دعي اليه وتعلمه . ومن يمعن النظر فيما تقدم ير جلياً ان الكلام موجه بجملته الى المعنى الادبي فلا يتخلله شيء مما هنالك من الامور الدينية البتة . على انني لم أقف في هذا الموقف الحرج الا وقفة من يعتقد بصحة أدياننا العظمى كلها وهو على كونه حرجاً

يستدعى الى الوقوف فيه كل ذي غيرة وطنية فعساه ان لا يعدم من ذوي المقدرة والفضل من يعلوه فيوفي الخدمة حقها فانها خير من كل مايسعى وراءه كتاب هـذا العصر عندنا جهاداً في سبيل التمدن لان الداء قتال لامحالة

على انا لو تأملنا في كيفية المعاملة التي أتى بها أولئك الذين أخذوا بانذار الناس ودعوهم الى عبادة الخالق لبزغت في عقولنا أنوار الحقيقة وعكفنا بكليتنا على بواعث الولاء والوئام انظر اصلحك الله الى أولئك العرب الذين على ما كان لهم من الجاهلية الجهلاء كيف انهم لم يلبثوا أن تألفوا وخرجوا من اماكنهم سعياً وراء الجهاد حتى أخذوا بمبادئ التمدن اذ اينعت فيهم لاول وهلة من نشأتهـم الدينية ثمار الضمير الصالح بقوة روح الديانة فكانوا على اجتماع وحدتهـم بدعوة العصبة الدينية وتألبهم للقتال الذي كتب عليهم جهاداً في سبيل الدين لم يتخذوا تلك العصبة مركزاً لسياستهم

ولا تركوها تتغلب على صوالحهم السياسية فكانوا { نفعنا الله بهم } يقرون أهل الكتاب في اماكنهم متمتعين باسباب الراحة والامن . ولما شاع عنهم العدل وطار صيته في الآفاق التجأ اليهم كثير من الرومانيين تفلتاً من جور حكامهم والتماساً للراحة فخبوهم احسن الاماكن حيث تمتعوا بعدالة لم يعرفوها في بلادهم . فلو حكم اولئك الكرام في اخلاقهم هاتيك الاميال الدينية المتحكمة الآن في اخلاقنا لما امكن لهم ان يبلغوا بارتقاء البلاد الى ما بلغوا ولا كانوا قدروا على تخليد فضل لن يزال العالم الغربي يذكرهم به ويعطر انديته العلمية بذكر محاسنه .

ومن الغريب ان اديانتا التي اوجدت نور التمدن من الظلمة نراها اليوم على خلاف ذلك . على ان العقلاء المحققين يقولون بدخول تعاليم جديدة عليها في القرون الوسطى أزمنة الظلمة والتعاسة أيام كان خدمة الاديان

يتصرفون في عقول الناس كيف شاؤا بدليل ان كثيراً منهم
لا يزالون يتصرفون كذلك في اماكن الجهل حتى يومنا
هذا . والمرجح ان هؤلاء علموا الناس ايامئذ بحسب اميالهم
وغاياتهم وعزوا تعاليمهم الى الرسل وخلفائهم فان صح هذا
كان ما نراه جارياً بيننا من التحزب الديني نتيجة تلك التعاليم
الدخيلة . ولا اخاله الا صحيحاً لان المتامل في الكتب المنزلة
التي قد يحمل ظاهر بعض تعاليمها على الظن بما يشير الى
التعصب يرى من خلال هاتيك التعاليم العجيبة ما ينفي
الظن والعلماء يصرفون كل تعليم ينافي التقوى حيث تبدو
مظنة التعصب الى اغراض اقتضتها المصلحة . ولا يخفى ان
الدنيا لا تخلو من اناس اشرار يدسون السم في كل شيءٍ
فما اجدر الذين يعزون الى الرسل تعاليم تنافي ما قام بعبئه
اولئك الاطهار من اخراج الناس من الظلمة الى النور بان
يجازوا بسوء اعمالهم فانها دسيسة في الاديان . ولعمر الحق

ان شر الذين يدسون أنفسهم مع الصالحين وليسوا منهـم لمن أعظم الشرور لانه خفي مستتر بستر الصلاح الخارجي فلا يمكن اتقاؤه فهو يجوز على الناس وليس من شعور به هنالك .

هـذا وان ما يعتقده كل فريق منا من أفضلية دينه فلا يلزم عنه ما نحن عليه من الضغائن والانقسام وتخريب بيوتنا بايدينا . فاذا قال قائل منا مثلا ان مفاتيح السماء انما اعطيت لبطرس الرسول وحده دون سواه وهو لا يفتح ابوابها الا لمن كان معترفاً برئاسة حضرة الحبر الروماني أفلا ترى انه يلزمنا دينياً ان نعتقد جميعنا كافة بان للسماء مفاتيح اخرى غير التي تسلمها بطرس وهي محفوظة في خزائن ذلك الديان العظيم حيث العدل والرحمة والمحبة . الستم انتم الثلاثة ذوو الكتب المنزلة تعتقدون بحسب مآل كتبكم ان تلك الدينونة الرهيبة ليست اكثر من الوقوع

في قبضة العدل الالهي فعلى م تحكمون بهلاك بعضكم بعضاً ولا ظلم عليكم ولا خوف ولا انتم ممن يحزنون . ولنفرض هدا كم الله انه تباركت حكمته التي لا تدركها العقول غير راض الا عن واحد منكم وان ذينك الاثنين مغضوب عليهما فاي دخل لهذا في احوالكم الدنيوية وهو من متعلقات الآخرة ألم يدر في خلدكم حتى الآن ان الدين شيء والدنيا شيء آخر أولم يئن لكم وانتم في عصر التمدن والمعارف ابناء وطن واحد ان تلتئموا حول مائدة الوفق والمحبة والولاء كما يلتئم افراد العائلة الواحدة حول مائدة طعامهم بل ألم يئن لعلمائكم وهم آخذون في التوفيق بين الدين والعلم خدمة للدين وحده ان يأخذوا بالتوفيق بينكم خدمة للدين وللدولة والوطن معاً . ترى أي التوفيقين أسهل مراساً عليهم ديناً أليس ذلك الكتاب « الذي » لا ريب فيه بحراً خضما يمكن لغواصه على بعد غوره ان يستخرجوا

من لآلئه ما يكفي لابتياع الالفة والاتحاد . تالله لقد صرنا مثلا بين الامم فان لم نبدل من اطوارنا الحاضرة خصالا حميدة تنزع بنا الى مابه خيرنا وسعادتنا فلتبكي على عقولنا البواكي .

وليس يخاف على ذوي الابصار والبصائر اننا اليوم لفي حاجة شديدة الى العروج في مراقي التقدم لنضاهي الامم المتمدنة ونباريهم في مضمار هذا الزمان الذي لا يتمتع فيه بالراحة الا من كان منتظماً في سلكهم . وهذا العروج انما يكون بالتعاون والتكاتف والاخذ بحقائق الامور لا بالتعصب والانشقاق والنفور والعداء . فالجهل الذي رتع به اسلافنا في مراتع الراحة على زعم الاكثرين منا لا يفيدنا اليوم غير العناء والتقهقر لان ضياء هذا العصر بمعارفه الزاهرة قد محا ظلمة هاتيك الراحة فاصبحنا مضطرين الى السعي في الحصول على راحة جديدة تنطبق على احكام

هذه الايام التي وصلنا اليها ونحن في غفلة عنها . ومعلوم ان اباءنا رحمهم الله قد كانوا في غنى عن الانضمام والتعاضد لان احوالهم السياسية والمدنية والمعاشية غير احوالنا الآن وعليه فالتحزبات الدينية لم تؤثر بهم تأثيرها بنا في هاته الايام فنحن لا راحة لنا ولا حياة الا باستئصال جرثومة هذا الداء حتى يتسنى لنا النهوض نحو العمل الجديد المتطلب منا في سبيل التقدم مباراة لاولئك كما تقدم مما لم تمس الحاجة اليه في هاتيك الازمنة بل لم يكن يخطر على بالهم . فاضرار التعصب التي لحقت بالاولين كانت مقصورة على النفرة وضرب الذلة والمسكنة على الفئة الضعيفة وهي ولئن كانت أشد مما هي عليه الآن الا انها لم تكن من الضرر في شيء بالنظر الى احوالهم فقد كانوا عائشين في ظلمة الجهل ودنياهم عامرة ومنعتهم وافرة وليس بينهم الا كل قانع بمركزه راض بحده لا يسوءه ظلم ولا استبداد

ويسره ان يدخل بيته وينفرد بعائلته وقفص الخبز ملآن وفراش النوم ممدود غير فاطن الى ما هنالك من الظلمة المحتفة به لان دماغه قد كان ملآن منها . واما اضراره اليوم فعظيمة جداً لان وراءها الخراب والتعاسة فلولم يكن منها غير صيلولته دون كل فائدة ومنفعة من فوائد ومنافع العصر التاسع عشر لكفى بها اضراراً جسيمة . ترى بمَ أضرت النفرة بالاولين وقد كان الجوخاليا لهم يبيضون ويصفرون وليس هنالك من صياد يراقب انفرادهم اوصارخ ينادي بهم حي على الفلاح . واي كحل من كحول الجور والاعتساف أمض عيونهم ولم يمضها اثمد الجهل من قبل حتى صاروا يرون القبيح حسناً ويعدون تعاستهم سعاده . لاجرم ان بين احوالنا واحوالهم ما بين السماء والارض فتأمل .

ومهما قل التعصب في هذه الايام فلا ينفك على قلته

كثير الاضرار واضراره تزداد جسامة كلما زاد مسيس
الحاجة الى التقدم فقليله مع المعارف أضر بالناس من كثيره
مع الجهل - وهنا يتضح خطأ القائلين بعدم أهميته الآن
بدعوى انه قد قل عن ذي قبل ويتبين للمطالع ان لانجاة
لنا من شره الا بازالتــه كلياً . ذلك أمر موكول الى همة
دولتنا العلية فعسى ان تنظراليه بعين لا يتخللها اغضاء لانه
من الرزايا الفادحة التي عليها تمشى تعاسة الرعية وخراب
البلاد .

وقبل ان نختم الكلام على التعصب وأضراره نأتي على
تتمة مايوضح لنا أضراره الدينية توضيحاً لا يبقى معه شبهة
حتى يغدو المطامع وهو على يقين من عدم جوازه ديناً فنقول
لقد كان علماء المغرب زمان جهادهم في سبيل التمدن
في حرب عوان قائمة بينهم وبين خـدمة الدين من جراء
مكابرة هؤلاء للحقائق العلمية بدعواهم انها تخالف الدين

وظل الامر كذلك حتى انجلت هاتيك الحرب المستطيلة عن انحطاط قدر العقائد الدينية فكان سبب خسارة الغربيين للدين خدمة الدين أنفسهم لانهم قد جعلوه آلة حربية ضد كل حقيقة نظمها الباري تعالى في سلك هذا الكون فلو أخذ أولئك الخدمة من ذلك العهد بالتوفيق بين الدين والعلم كما يفعلون الآن حين لم يبق السيف مكاناً للعذل لما ارتاب الناس بالدين ولا قام بينهم من علم ببطلانه اذ لايخفى ان اكتشاف حقائق راهنة محسوسة تكاد تلمسها الكف وتسمعها الاذن اذا قال نصراء الدين انها على خلاف الوحي وأصروا على المقاومة والتصدي لاتلبث مكابرتهم حتي تنتهي بالمؤمنين الى انكاره فتأمل

أما نحن معشر الشرقيين فصيبتنا من حيثية احوالنا الدينية مزدوجة لان عداما لدينا من المعتقدات الباطلة الحائلة بيننا وبين التمدن لما هنالك من مكابرة الحقائق

الساطعة نرى امامنا من التعصب الوخيم ثلالا تحاكي في
هذه الايام الجبال الشامخة وهي وحدها كافية لصدنا عن
الوصول الى حيث يمكن التمتع بحقوق التمدن . ولا مراء
ان المصيبة الثانية شر من الاولى لان التعصب يستأصل
فروع التقدم ويقتل الحياة الوطنية وينزع الخير من البلاد
ويقطع سلكا أعده الفضلاء في هذا العصر لانتظام لآلئ
يتألف منها عقداً ثميناً يتحلى به جيد العالم الانساني وبالجملة
فانه يطفئ نور العمران الذي هو بهاء الانسان وفخره .
وأضراره بالدين لاتقل عن اضراره بالدنيا بل هي أعظم
كثيراً بما لايقاس به شيء في هذه الحياة الدنيالان وراءها
حرمانه السعادة الابدية لان الانسان متى أحس بلزوم
العروج في معارج التقدم الذي لايتسنى الا بالتعاون
والارتباط الوثيق ورأى ان الدين يمنع من ذلك الارتباط
نفر من الدين لامحالة . فالتعصب من هذه الحيثية يحاكي

مكابرة الامور القطعية التي أشرنا اليها في ما تقدم تمهيداً للكلام هنا . ولسنا نقول هـذا جزافاً فانه من الامور المشاهدة عياناً لاننا لانكاد نجد بيننا من هو غير مكترث للتعصب الا من كان مفتوناً في دينه حتى صرنا نتوقع زواله بترك الدين والعياذ بالله

لاجرم ان تعليق التعصب الوخيم في هـذا العصر بالتعاليم الدينية ونحن نرى اضراره مرأى العين يعد من أعظم التجديف على واضع الاديان لانه سبحانه وتعالى قد وضعها لخير عباده وسعادتهم لا لشقائهم وتعاستهم أليس الخليق بنا ان كنا مؤمنين ان نمنع التعليم بالتعصب حرصاً على سعادتنا وصوناً لشرف اديانـنا ـ نحن الآن لانشعر باضراره الملمة بنا لما لدينا من الجهل المستحوذ على السواد الاعظم لكن متى عمت المعارف وسطعت الحقائق شعرنا بما هنالك من الاضرار شعوراً ينتهي بالعقائد الدينية

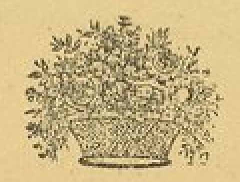
الى نقطة لو أدرك رؤساء الاديان خطرها لبادروا منذ زمان الى نبذ التعصب وتحريمه علينا وتأويل كل تعليم ديني يؤذن به بحسب الظاهر كما أخذ بعضهم مجدداً بتأويل القضايا الدينية المخالفة للعلم وطابقوا بينها وبينه . فان لم يفعلوا بان يزيلوا من امام التقدم الذي لابد وان يقبل العموم على الاخذ بفروعه كل عثرة وهمية ندموا ولات ساعة مندم

ولا حاجة لان نبين اعتبار الديانة الاسلامية لاهل الكتاب وقد مر بنا شيء يشير الى ذلك لاسيما وأمره اشهر من نار على علم ولكنا رأينا هنا ان نتخذ استواء عليّ في مجلس القضاء مع رجل من عامة الاسرائيليين دليلا راهناً على خلو هذه الديانة الالهية من معنى التعصب خلواً تاماً لان حيثما تكون العدالة والمساواة ينتفي التعصب لامحالة على ان الامر قد جاوز حد المساواة وعلا بالفضل علواً كبيراً

اذ لاتحتمل المساواة ان يستوي ذلك الامام { رضي الله عنه } ذلك الاستواء الغريب الذي لم يبق معه شبهة في ان الشرع الشريف يمنع من التعصب . واعلم اننا لم نكتف بهذا المثال لقلة الحوادث من هذا النحو في الاسلام لان امثلة ذلك كثيرة جداً فهي تعدد ولا تعد وانما أردنا ونحن على وشك الختام ان ندل بالقليل على الكثير تنبيهاً للجهلاء لانهم كثار جداً فيالتلك الشريعة الغراء من جهلاء لايفقهون واجباتهم نحوها . اما ذلك الاثر النبوي الشريف الذي هو سلم الفضائل فان لم يكن فيه غير اللعنة على من يوقظ الفتنة فكفى به عاملا على السكينة والمحبة والاخذ باسباب الاتحاد

والحاصل فان لنا من خلاصة ماتقدم ان ما نأتيه من الضغائن والقلاقل والفتن ذات الرزايا الفادحة انما هو خروج عن الاوامر الدينية وضد العدل الالهي فلا جرم

اننا نغضب الله من حيث نعتقد العمل بوصاياه وتلك خطيئة يتحمل أوزارها رؤساء الاديان وأعيان البلاد لتركهم جهلة الناس يتمادون في غرورهم بل هي رزيئة يتحمل اضرارها الدولة والرعية لانها تجلب الشر وتنزع الخير وتعود على البلاد بالخزي والذل والعار والخراب فعلى خطباء المساجد ووعاظ الكنائس ان يأتوا باولئك الى حيث يتعلمون الانتفاع من الولاء والوئام وخدمة الانسانية والوطن



(التمدن والعوايد)

قد يستفاد من معنى التمدن لغوياً الحضارة غالباً الا انه يطلق على الانتقال من حالة الخشونة والجهل الى حالة الظرف والمعرفة. على ان الاقتصار فيه على مجرد الانتقال قد لا يفي بغايته العظمى فقد يحصل الانتقال وليس التمدن هنالك من هاتيك الغاية في شيء يستحق الذكر فلا يخلو والحالة هذه من ان المراد به البراعة بالاخذ في أسباب التقدم والفلاح .

ولا سبيل للتمدن بدون العز والمنعة لان بهما تتوفر أسبابه وأجمل حلية له الفضيلة لان بها تينع ثمار العواطف السامية التي هي شرف الوجود الانساني وغايته . وهو حد أدبي يفصل الانسان المتمدن عن الحيوان الاعجم لانه منشأ العمران وحياة الكرامة البشرية وشأنه العروج باهله

في معارج الفلاح . على انه قد ينحدر بالناس الى التأخر والخراب اذا لم تتوفر لديهم أسبابه الرئيسة العاملة كما اذا كان مقتبساً تقليدياً خالياً من الخصائص الطبيعية التي عليها تتوقف منافعه . فافضل التمدن ماسقيت غرسته بعرق كد اهله وأينعت ثماره بحسب خصائص تربة البلاد وهوائها وأشرفه ماخفقت رايات العدل فى افيائه .

والتمدن قديم العهد جداً رتع فى رياضه كثير من أمم المشرق أدهاراً طوالا الا انه لم يبلغ عندهم من حيث الفضائل والمعارف شأواً يستحق الذكر لان أديانهم الوثنية ذات الشعائر والخرافات الفاسدة كانت ولامراء تحول دون هذه المراقي السامية . على ان غاراتهم وحروبهم المتواصلة قد أضرت به كثيراً فكانت قلما تتيح له الثبوت على حال واحدة أو في مكان واحد . ومهما كان من أمره فهو محط رواحل الفخر لان بينما كان الشرق مستنيراً

بنوره كل هاتيك الادهار الطوال كان الغرب خابطاً باهله في ظلمات الجهل . على ان التمدن الذي زهر بدره في الافق الشرقي وكسا الشرق حلة الفخر الحقيقي انما هو ذلك الذي جاء به الاسلام على المبادئ الصحيحة اذ خفقت فيه رايات العدل والمساواة . ولكن أبت الحوادث الشرقية الا اتباع خطتها القديمة فأفل بدره بعد اذ أضاء اجيالا وقضى الله أمراً كان مفعولا .

ولقد لحق بنا اليوم نحن العثمانيين عموماً والسوريين خصوصاً قسمة ضيزى فكان نصيبنا من التمدن ذلك النوع التقليدي المقصور على الانتقال لانه ليس من الخير في شيء بل قد يكون مدخلا للقهر والارتباك في أمور المعيشة لما يتطلبه لها يوماً بعد يوم من مطاليب جديدة لاقبل لنا بها . ولا شبهة ان تمدناً كهذا ليس وراؤه غير انسياب الانسان الى طلب هاتيك الاحتياجات الفادحة

فى طرق المتاعب والاوصاب حيث يقضي العمر جرياً وراء الجهاد ضد الطبيعة حتى اذا خارت قواه كدحاً وكداً قضى شهيد التمدن .

وليس من يجهل ان للتمدن الغربي الحديث مزية شريفة أسست أعمدته على الاصلاح فقومت الاعوجاج وقطعت دابر الظلم والاستبداد غير ان له هنالك عوائد زائفة ليست من التمدن في شيء . وهي على متانة دعائمه وغزارة منافعه مضرة بأهله جداً لانها قد ألفت عندهم احزاب متعددة طالما كدرت مواردهم ولا تزال تسعى بينهم فى الارض فساداً والمعروف من امرها ان شأنها غالباً على اختلاف مبادئها شن الغارة على كل دستور رسخت عليه اعمدة نظام العالم الحاضر . وليس من ينكر انها نشأت عن أقلام كتبة الكفر الذين هونوا على الناس ترك العقائد الدينية لان من يترك جانب الله يخوض في كل محظور ولا

يرى هنالك من حرج . فالتمدن الحديث لم يكد يكتسي حلة الفخر حتى تلطخت بشوائب العوائد القبيحة . على ان هذه العوائد نتيجة الافراط في هاتيك المزية الصالحة والغريب انها على كونها كذلك قد تقع أيضاً في التمدن المقصور على الانتقال على خلوه مما أفرط فيه .. وهنا نرى تعاستنا مرأى العين اذ ما كفانا نقص تمدننا وضعفه حتى لحق بنا شيء من ذلك وهو آخذ بالازدياد ويالذلك اللاحق من دمار

والذي يقابل بين سنن الاجداد في الاعصر الغابرة وبين بدع الاحفاد في هذا العصر لا يستغرب سوء المنقلب الحاضر الذي أفضى بالاكثرين منا الى سوء الحال والتعاسة . ومعلوم ان الانسان ابن العادة لان عليها تمشى اكثر اعماله وبها يذكر في المجالس والمحافل فهو يحسن بحسنها ويقبح بقبيحها فالحسن منها يرقى به في مراقي الفخر ويؤهله للسعادة وقبيحها

يهبط به الى حضيض الذل حيث الشقاء والتعاسة ومايصدق
هنا على الافراد يصدق على غيرهم لان على العوائد تمشى
أحوال الانسان الاجتماعية فالشعب الذي يتطرف في العادات
لايحمد مصيره مهما كان متمدناً لان التجاوز فى العوائد
حد الاعتدال مجلبة للويلات . وكما أشرنا في ماتقدم ان
الاوربيين أنفسهم على وفرة مواد التمدن الصحيح عندهم
لاتكاد تسلم مملكة من ممالكهم من الاضرار والشرور
الناجمة عن ترك سنن القدماء

وغني عن البيان اننا فى عصر لايكاد يكسبنا حقيقة حتى
يسلبنا أزاءها سنة من سنن أسلافنا الغراء فهو ولئن غزرت
معارفه وجلت حقائقه ففيه من البدع ماهو شر من خرافات
العصور الغابرة . فان لم ننزع الى استدراك المحمود من
عوائدنا الشرقية بابطال ماتعودناه تلقفاً عن قوم لايرون فى
انتهاك حرمة القديم من حرج صرنا الي مايعود علينا بالوبال

وبئس المصير . ولكن هيهات ان يتسنى لنا النزوع ونحن انما مسترشدون بارشادات أولئك الفحول الذين ليس من ندحة لنا عن التخلق بأخلاقهم وهنا نذكرهم بما لهم من الخبرة والاقتدار فانهم قلما يبدلون من السنة القديمة بدعة مالم تدفعهم اليها أحوالهم ويسبق بها علمهم بحيث يهيئون لها أسباباً تقوم أودها وتدفع عنهم مضرتها خلافاً لنا نحن الشرقيين فاننا نتلقف عنهم هاتيك البدع عن غير روية وليس لدينا من الاستعداد ما يمكننا من دفع المضار واحوالنا تأبى الا الاقرار على ماسنه لنا الاولون على ان اكثر الغربيين ربما يشكون شكوانا غير ان شكواهم نتيجة عدم الرضى وخصوصاً ان بيننا وبينهم بوناً بعيداً فما يضر بنا من ذلك وينهكنا قد يمكن ان لايؤثر فيهم الا دون الطفيف فمثل ذلك مثل داء واحد يصيب اثنين فيموت الواحد ويشفي الآخر

ولا مشاحة ان اقتباسنا العوائد عن الغربيين نتيجة تقدمهم فكلما زادوا تقدماً زدنا اقتباساً وليس من اقتباساتنا الا كل ما من شأنه ان يذهب بآدابنا ويجلب علينا المضرة ولا عجب فاننا مضطرون الى مجاراتهم في التمدن وليس من وسعنا اقتباس الصالح منه وما يظنه بعضنا من امكانية الاقتصار على اقتباس خير التمدن وترك شره فمن الامور المتعذرة علينا غالباً اذ لا يتأتى اقتباس حسنة مالم يكن هنالك استعداد يمكن من الانتفاع بها فتأمل ٠

تقدم معنا ان الغربيين لا يبدلون من السنة القديمة بدعة حتى يهيئوا لها أسباباً تقوم أودها وتدفع عنهم مضرتها بخلافنا نحن فاننا نأخذها عنهم كمن يأخذ سما ناقعاً لان بدعهم لا تلائم أحوالنا اذ ليس لدينا من أسباب التهيئة ما يدفع عنا اضرارها ٠ وأوضح دليل على ذلك وأقربه فهماً الى ذهن المطالع من العامة بدعة المهر المعروفة « بالدوتا » فكلنا

يعلم انها بدعة افرنجية دخلت بلادنا منذ عهد قريب وتأصلت فيها حتى صارت مرعية كانما هي ذلك الاكليل الذي لا يتم الزواج الا به . غير ان البعض منا ربما يجهلون ان هذه البدعة لم تترك عند الغربيين وشأنها فانهم قد زحزحوا وقرها عن كواهلهم فترى الفتيات هنالك مطلقات العنان يتخذن المعاشرة ذريعة للزواج فيخرجن ليلا ونهاراً في طلب الزوج حيث يجدنه مخترقات الازقة والشوارع منتشرات في الاسواق كالاعلام حتى كأن اليابسة عندهم بحر وهنّ فيه كالجواري المنشآت . وليس هنالك من مرسح أو مرقص أو ملعب أو أي محل كان من محال الملاهي العمومية يمكن له ان يمنعهن عن التفتيش عنه بل لهن الصدر حيثما حللن فهن الآمرات الناهيات والاعظم من ذلك ان أكثرهن يتعاطين أسباب الاكتساب كالرجال حتى اذا لم تف المعاشرة بالغرض ابتاعت الفتاة

زوجاً بعرق جبينها ولا يرين في كل ذلك عاراً - فاين هذا كله من بناتنا القاصرات الطرف المقصورات في الخيام ولا سبيل لخروج الفتاة منها الا بخرج من المال . لعمر الحق انها لضربة قاضية على الجواري المشرقيات المسيحيات اللواتي ليس من وسعهن القيام بتأدية هذا الصداق القبيح بل هي بدعة ما أنزل الله بها في الشرق من سلطان

والذي يلزم ايراده هنا على سبيل الاستطراد هو انه ليس في الدنيا من عار وفخر الا بحسب الاصطلاح فرب عار عندنا يعده غيرنا فخراً وبالعكس بخلاف النافع والضار فان لكل منهما فاعلية تميزه عن الآخر بحكم الطبع فلا دخل فيهما للاصطلاح أي اننا لا نقدر ان نعتبر النافع ضاراً والضار نافعاً . ومن الغريب اننا نجاري الغربيين في الضار على وباله ونتنزه عنهم حيث يكون شيء من العار على خلوه من المضرة وعلى ما هنالك من الوهم . وليس المراد هنا

ان نفعل العار مثلهم بدون محاشاة كلا ـ لا سيما وان ماذكرناه
من اطلاقهم العنان لبناتهم غير شائع عندهم على السواء
بل لكل مملكة من ممالكهم عوائد من هذه الحيثية
يخالف كلها أو بعضها عوائد الممالك الاخرى حتى انك
لتجد في بعض ممالكهم من الحرية للفتاة ما هو غاية فى
التناهي مما تأباه طباعنا كل الاباءة غير ان هذه العوائد جميعها
على اختلافها تجري عندهم على اسلوب يتكفل بملافاة
الضرر ـ وانما المراد الا نجاريهم فى ما يأول لمضرتنا فان
لم يمكنا المجاراة فى المنفعة فلا اقل من الاهتمام بما يدفع
الضرر فقد نجتنب عاراً طفيفاً وهو خير دافع . على اننا
قد جاريناهم في كثير من العيوب مما لم نألفه من قبل حتى
أضحى الكثير من آدابنا هباء منثوراً غير ان لسوء الحظ
ما من عيب منها غير ضار فالظاهر من اقتصارنا على المجاراة
فى العيوب المضرة اننا لا نحسب العار عاراً الا ما كان منه

ليس بضائر فتأمل

ومن الغريب انا على رغبتنا في التمدن المقصور على الانتقال وتهافتنا على العوائد الحديثة لايزال أكثرنا في حالة الجهل والخشونة لا يعرفون للتمدن اسما ولا يدركون للانسانية معنى وتلك مصيبة مزدوجة لاننا نلقى الشر من جانبين فمن الجانب الواحد يكاد هذا التمدن الناقص ان يقضي علينا قهراً وتعاسة من جراء وقره الباهظ وخلوه من أسباب الخير فهو بالحقيقة شر من العدم . وهناك قوم لايفقهون يبرزون للنزال من الجانب الآخر شناً للغارة على بواعث الالفة والاتحاد فيسلبوا الراحة ويكدروا الموارد . على ان لمثل هؤلاء خصب المرتع وراحه البال ولغيرهم القهر والوبال .

والذي يزيدنا وبالا هو ان عوائدنا الحديثة مؤذنة بتعاسة مستقبلنا لانها فضلا عن كونها مضرة في ذاتها

فان أحوالنا لا تزال قائمة على اخلاق السواد الاعظم فى ممالكنا المحروسة أولئك الذين ما انفكوا عائشين على ما كان عليه آباؤهم فى ظلمة القرون الوسطى من خشونة الجانب وغلظة الطباع . ولا شبهة ان العوائد اذا لم تجر على ما تقتضيه طبيعة البلاد أدت الى ما لا يحمد ولو كانت حسنة فما قولك بها والحالة هذه اذا كانت قبيحة . على ان أقبح ما اتصل الينا في هذه الايام التعيسة التطاول على ما لم يكن الشرق ليتطاول عليه مذ كان مهد الانسان فقد ألف المشارقة احترام ملوكهم احتراماً يقرب من العبادة حتى ان مسامعهم لتستك من ذكر ما يشف عما يؤذن بغير ذلك سواء كانوا في مجالسهم العمومية أو في العزلة حيث لا ناظر ولا رقيب . ونحن معشر العثمانيين نعتقد ان جلالة مولانا وولي نعمتنا أمير المؤمنين جالس على عرش الخلافة العظمى وانه خليفة الله في أرضه . ولا فرق في ذلك بين المسلمين وغيرهم

من رعايا دولتنا العلية لان المسيحي منا مأمور دينياً ان يؤدي ما للملك تأديته ما لله وان يخضع له ويعتقد بان سلطته من الله [1] . فان وجد بين المسيحيين من لا يشعر بهذا المعتقد فهو جاهل لا يعرف شيئاً من قواعد دينه وان قال قائلٌ منهم بخلاف ما قلنا فهو أجهل وأضل سبيلا — وهنا أقول : انه يجب على الكنيسة في الممالك المحروسة ان تصلي من اجل جلالته وتدعو له بطول العمر والنصر وان تكرر حمده على منابرها . ولا سبيل الى القول بان الكنيسة قصرت الصلاة من أجل ملوكها على المؤمنين بها منهم لانه قول لا يقوله الا كل مدعٍ عرف شيئاً وغابت عنه أشياء لان ذلك القصر أمر عارض اقتضاه الاحتفاء بالملوك

(١) هذا هو تعليم الديانة المسيحية ايام كان الملوك وثنيين فكم هو أحرى بالاتباع وجلالة مولانا السلطان الاعظم أعزه الله ونصره هو خليفة رسول الله المصطفى صلى الله عليه وسلم

الذين تنصروا فلقبتهم بالمؤمنين . فالكنيسة مضطرة الى
ان تصلي من أجل ملوكها مسيحيين كانوا أو غير مسيحيين
ولا أظن بوجود من ينكر عليَّ ذلك والانجيل كتابه الا
من أعمى الله بصيرته وكان من القوم المفسدين . كيف لا
والانجيل يأمر بالصلاة حتى من أجل الاعداء ولعمر الحق
ان كنيسة تصلي من أجل سلامة العالم أجمع يعد ترك
الصلاة فيها من اجل سلامة الملك بدعة وضلالا فعلى
الكنائس العثمانية قاطبةً ان تقوم بهذا الفرض الديني
خصوصاً وهي متمتعة بحمايةً ونعم جلالته أعزه الله ولست
أعني هنا انها غير قائمة بذلك الفرض كلا وانما قلت ماقلته
لاسمع اولئك المفسدين الذين أخذوا في هذه الايام
ينكرون على الآباء الروحيين اقامة الدعاء لجلالة مولانا
في الكنائس - على اننا مازلنا ولن نزال جميعنا كافة رافعين
لجلالته رايات العبوديةً والشكر سائلين الله ان يطيل لنا

في حياته الكريمة ويحفظ اناذاته المقدّسة من كل مكروه .
وان فئة منا استهواها الغرور فارتكبت المنكر فسوف يغير
الله مابها فترى باعينها سوء المنقلب .

ولقد استهوتنا العوائد الغربية حتى لم يعد بين شبابنا
الا كل مسترسلٍ اليها هائم على وجههِ في سبيل غرامها .
ومن أقبح ماهنالك وأكثره عيوباً واضراراً المقامرة
والمسكرات ذات الانواع المتعددة التي تذهب بالعقل
والجسم معاً الى شفير الهاوية وظلمة الموت فضلا عما
هناك من استهلاك المال في سبيل الشر وصرف الوقت
في الجهل والتعاسة مما ينزل بالانسان من قدرهِ الرفيع
الذي خصه به الباري تعالى الى منزلة السفاهة والرذيلة .
وليس من اضرار السكر ماهو أشد فتكاً بالانسان من
فتكها بالصفات الادبية فلو فرضنا ان الناس كلهم أجمعين
أجمعوا على معاقرة المسكرات لكان لبني الانسان على وجه

البسيطة حالة يتعذّر علينا تصور كيفيتها حيث تكون ولا مراء وراء الحالة البهيمية بمراحل

ومن العوائد التي اقتبسناها عن الغربيين ماهو حسن في ذاته كرفع الضغط عن المرأة وتسويتها بالرجل غير ان الحسن قد لايكون حسناً في بعض الاحوال فلا بد لنا من الاعتدال باستعمال مانقتبسه عنهم من الطيبات ريثما تنطبق أحوالنا على أحوالهم والا أفضى الافراط بها الى الضرر فينعكس المراد لان نساءنا لايزلنَ في حالة الجهل حتى اللواتي دخلنَ المدارس منهنّ الا قليلا .

وليس القصد مما تقدّم سلب المرأة عندنا ما نالته من حقوق هذا العصر وارجاعها الى الحالة القديمة معاذ الله من ذلك ـ لان جل ما اكتسبناه من التمدن الحديث هو اننا قد عرفنا ان المرأة عنصر الأدب واس السعادة ومرقاة الفضيلة مما يقضي علينا باعتبارها واعلاء منزلتها ناهيك

ما في اذلالها من الخشونة والبربرية خصوصاً وقد يظن اليوم قوم ان ماتراه من الفرق في المدارك العقلية بينها وبين الرجل لعله نتيجة السلطة والضغط عليها بحيث وقف عقلها على توالي الاحقاب عند الحد الذي لم يتسن لها ان تتجاوزه وقوفاً طبيعياً مما يقضي قضاءاً باتاً بوجوب رفع الضغط عنها ومساواتها بالرجل وان تكون مطلقة العنان في أعمالها حتى تعود اليها مداركها الطبيعية كما أوشك ان يشاهد ذلك في نساء العالم المتمدن - وانما استطردت قليلا من الكلام في هذا الموضوع لتبيان وجوب تعليمها الذي لايزال الاكثرون عندنا غير مكترثين له ولتوجيه التفات اولي الامر الى مايجب ان تكون عليه مدرستها حتى تخرج منها وهي على وفق المراد قادرة على القيام بما تقتضيه الآن حاجة البلاد من تدبير المنزل وتربية الاولاد وليس من العوائد الحديثة ماهو أقبح من هذه

المراقص التي يأخذ فيها الرجال بمخاصرة النساء من كل هيفاء بديعة الجمال عرّية الاكتاف . على انهُ مهما يكن من قبح تلك المراقص فليست بالامر الغريب ان نراها عند قوم عرّوا وقتاً ما فتاةً من ثيابها وسجدوا لها حيث يسجد لله وانما الغريب ان نراها في بلادنا ونساء المشرق يدخلنها

تأمل يا مَن شغفته العوائد الغربية حباً كيف يمشي الغربي في ارضك مرحاً كانما البلاد بلادهُ وكيف ان لهُ التقدُّم عليك حيثما كنت وكيف انهُ اذا أتى بلادك في طلب الرزق يدخل اليهِ من أبواب يصعب عليك على اقتدارك وخبرتك بأحوال البلاد الدخول منها او يُحظر وهو على ما فيهِ من الرقة واللطف حتى انه ليسألك العفو لاقل حركة مغايرة تبدو منهُ بحضرتك تراهُ عند ما يشعر منك بمس الطفيف من حقوقه يقطب في وجهك ويعربد

ويبدي من الشراسة والغلظة ما يخيل لك انهُ غير الرجل الذي عهدت فيه هاتيك الرقة وذاك اللطف وربما بدا منه ذلك ولم يكن من مسّ هنالك غير ما رآهُ بعين الغرض الاعمى . فما معنى ذلك يا ترى ان لم تكن حقوقهُ مرعية لا تُمس وأغراضهُ الباطلة اشرف من حقوقك الراهنة وانك انما خلقت لتكون ضحية هاتيك الاغراض

كل ذلك وأنت تتقرّب اليه وتتشرّف بمجالسته وتصرف غاية جهدك في التشبه به على حين لا يكون لك منه الا عيوبهُ ونقائصهُ لانك ما دمت على هاته الحال لاهياً عما يأول الى فلاحك فانت اضعف من ان تحصل بالتشبه به على الفلاح .

ولا خفاء ان الغربي على تمسكه باهداب الادب والانسانية كثير العيوب والنقائص فلا يغرنك تمدنهُ ولطفهُ الذي يتحوّل الى الخشونة لاقل سبب لان القوّة

المستحوذ عليها والارادة المطلقة التي اتخذها دستوراً لاعماله قد اودعتا فيه عنصر الطياشة والخفة كما اودعت فيك الآداب الشرقية ما تناقب بهِ من الرزانة والمروءة والشهامة المناقب التي بتشبهك بهِ تخسرها بلا عوض لانك ما دمت مقتصراً في هذا التشبه على ما هنالك من الاضرار فلست بقادر ان تحصل على كرامته فتمسي خاسراً

واعلم أيها القارئ ان ما جاء في هذه المقالة مؤذناً بأفضلية العوائد الشرقية انما هو من باب التعميم والا فهنالك عوائد أجل من ان يثنى عليها وحبذا لو يتأتى لنا اقتباسها . ولدينا من العوائد الشرقية ماهو غاية في القبح والخشونة فمن لنا بمن يدلنا على الخيار من الطائفتين تلك سعادة عظيمة لو يُتاح لنا نوالها . اما هاتيك العوائد القبيحة فلو لم يكن لدينا منها غير هذا التعصب الوخيم الذي هو وحده سبب تأخرنا وتعاستنا لكفى به رزيئة

تربو على كل رزايا العوائد الغربية . فعسى ان نتنبه من غفلتنا فلا نلقي بأيدينا الى التهلكة لاننا احوج الى الالفة والاتحاد منا الى اثارة البغضاء والشحناء .

ويسرنا من هذه الايام اننا تحررنا من أسر الجهل فنبذنا الخرافات وعوّلنا على الحقائق واننا رأينا فيها من سهولة الصلات واسباب الراحة فى الاسفار برّاً وبحراً ومن وفرة التدابير الصحية الآئلة لسعادة النوع الانساني مما يحدو بنا الى الاستخفاف بالزمان الغابر ويبعث على تحية العلم وأهله . غير ان هذا السرور لا يقاس بالقليل من المتاعب والاكدار والغموم التي يكابدها الاكثرون منا

ولنا من نافذة العصر الحاضر ما يرينا ان العصر القابل سيكون شراً من هذا اذ تزداد فيه العوائد الغربية الزائغة عن المحجة المثلى فتتعاظم الاحتياجات وتتفاقم الويلات وتبرز هاتيك العوائد بلباس الخلاعة وهنا نعود فنذكر ذلك الجنس

اللطيف المزمع ان ينشر لواء الحريّة في أرض المشرق ان لاينسى شدّة احتياجه للعلم لانهنّ اذا لم يتصفن حيث تبدو تلك الاحوال بالحكمة والدراية فهنالك التعاسة بعينها اذ لا راحة يومئذٍ مالم نجمع بين النافع والضار كما يفعل الغربيون حتى يسد الاول خلل الثاني فيلاشي اضراره فان لم نفعل فبشر الاحقاد بازمة شديدة . ومعلوم ان المرأة الحكيمة العاقلة القادرة على تدبير منزلها وتربية أولادها بخوف الله يمكن لها في مثل تلك الاحوال ان تخفف عن كاهل رجلها معظم وقر الوطأة وبالعكس اذا كانت جاهلة مقتصرة على التزين طامحة في الجري وراء الحريه كفرس جامح ركب رأسه فلا يثنيه شيءٌ فانها تزيده وقراً على وقر فليتقِ الله أبٌ يحظر العلم على ابنته أولا يهتم بتعليمها . على ان المدارس المعدّة عندنا لتعليمهنّ لعلها غير وافية بالمراد فعلى أولي الامر الالتفات الى هذا الشأن

الخطير لانهُ من المواجب الرئيسة التي عليها يتوقف الارتقاء في مراقي التقدم

ولقد مرّت علينا الايام والاعوام ونحن نجاهد في سبيل التمدن وليس لدينا حتى الآن ذرّة واحدة من صحيحه . والمتأمل في حقيقة تمدننا الحاضر لا يسعهُ الأَّ التعجب اذ يجدأ كثرهُ كذباً وخداعاً لان أ كثر مظاهر حياتنا ان لم نقل كلها ليست من التمدن الصحيح في شيء وما دمنا على هاته الحال فسوف يمرُّ بنا أيضاً اضعاف ما مرّ من الزمان مع زيادةٍ في الجهاد ولا يمكن لنا الحصول سوى على ماهنالك من الاضرار لان من يجاري غيره في أمر ما ولا يأخذ بمبادئ ذلك الامر اقتصرت المجارات على المضرّة وتعذّرت على المنفعة . فمجاراتنا للغربيين في التمدن عاريه من الاخذ بمبادئه الصحيحة . على اننا لو وقفنا عند هذا الحد المؤذن بعجزنا عن الاخذ بهاتيك المبادئ وقفة الاحرار لكنا

خيرنا أنفسنا بين ان نواصل المجاراة وبين ان نغفل أمرها اذا آنسنا منها الضرر ولكن لسوء الطالع قد أصبحنا غير قادرين على التملص منها فنحن على اضطرار الى مجاراتهم أردنا أم لم نرد - وهنا يجب التحذُّر من خطر هذا المركز الذي وضعنا فيه انفسنا برضانا لانهُ وخيم العاقبة فقد والله يخشى علينا واعداؤنا بالمرصاد من هذه الخطة التعيسة فعلى مَ لا نأخذ بحقائق الامور

ولأمرٍ مقرَّر اننا كلما زدنا تمدناً زدنا ويلاً فنحن وتمدننا أشبه بآدم وفردوسه فكلما مددنا بأيدينا الى ثمرة من شجر التمدن الشهية نجلب الشر على أنفسنا لانها محظورة علينا بالطبع - وهنا موضوع كلامنا ومحل تعاستنا لاننا نلقي الشر من حيث يُرجى الخير فالتمدن الذي ازدانت به أمم المغرب ورتعت في رياضه بمراتع التقدم والفلاح قد يزدي بنا ويعبث بأعمالنا فلا يصيبنا منه غير الأذى والتأخر

ولاغروَ فاننا تركنا كل هاتيك الاشجار الباسقة الكائنة في فردوس التمدن معرضين عن أثمارها البديعة ذات الالوان الناصعة من كل يانع رطب ومددنا بأيدينا الى شجرة الشر كما فعل أبونا آدم في فردوسه . ونخشى اذا نحن لم نسمع قوله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ان يصيبنا ما أصابه . أليس الاسلم لنا ان نهب من غفلتنا ونسلك طريق الاخذ في حقائق الامور من ان نسلم زمامنا لهذا الزمان الخبيث حتى يقلبنا كما يقلب الشاري السلعة كأنما هنالك اخشابٌ مسندة لاحس لها ولا حركة

ولقائلٍ ان يقول اننا سنكون في العصر القابل أقدر منا في هذا العصر على العروج في معارج الفلاح اذ قد أقشع عنا ضباب الجهل وهلَّ هلال المعارف في أفقنا ولا بد بصيرورته بدراً من الحصول على مايوطدلنا أركان النجاح

ـ فجوابه ان صيرورة هـذا الهلال بدراً لاتفيدنا مثقال ذرّة من النجاح مادام نوره مقتبساً من شمس العـلوم الثابتة هنالك وشتانَ بين مَن يستضيء بنور عن طريق الانعكاس وبين من يضيء عنده ذلك المصـدر الاصلي فيستنير بنورٍ باهرٍ مستكمل خصائصه الطبيعية التي عليها تتوقف منافعه . ألا ترى خلو نور القمر من الحرارة مع ان نوره مقتبسٌ من الشمس التي هي المصدر الاعظم لها. أو لا ترى ان للتمدن أثماراً لايلذ أكلها ويحـلو طعمها ويرخص ثمنها مالم تكن من حاصلات البلاد بخلاف ماإذا أتي بها من بلاد غريبة . فان لم تساعدنا الاحوال على غرس التمـدن في تربتنا ونسقيها بعرق جبيننا فلا سبيل للنجاح . ولا شبهة ان العلوم والمعارف في أحوال مثـل أحوالنا الحاضرة لاتأتي بادنى ثمرة بل يكون الجهل خير منها لانها لاتكسبنا اذ ذاك الاّ القهر ونكد العيش فتكثر

احتياجاتنا وتكبر نفوسنا حتى تتعب أجسامنا في سبيل مرادها الصعب فلا نكاد نبلغ منتصف الطريق حتى تقضي عياءً وكآبة .

تلك أحوالنا من حيث التمدن والعوائد وهذا شيءٌ منها نسوقهُ اليك أيها الشرقي فلعلك ترى به ان افتخارك بالتمدن الحاصل ضربٌ من الباطل فتأخذ الحذر لنفسك غير مغرىً بطلاوة الاباطيل . واعلم ان ما من نفعٍ الاَّ ومعهُ شيءٌ من الضرر واضرار التمدن كما علمت كثيرة فلابد لك من الاعتدال بمجاراة الغربي في الاضرار ريثما تتسنى لك مجاراتهُ في ما هنالك من المنافع حتى اذا توازنت لديك المنافع والمضار كنت في مأمنٍ من شر الخطر . ولا تنسَ ياهذا واجباتك نحو وطنك لأنهُ أساس خيرك وسعادتك فجامل ابن وطنك وسالمهُ بقدر جهدك حتى يكون لك يداً في سبيل القيام بهاتيك الواجبات الشريفة . واحذر ان يفصلك عنهُ فاصل ديني لان الله الذي لم يشأ ان يجعل الناس

أمة واحدة هو أدرى منك بمراده فانت ماذا يعنيك فهل هنالك غير الاعتراض على مشيئة الباري تعالى . هذا واننا نسأل الله والدنيا لمن غلب ان يرشدنا الى حيث يمكن الاخذ بحقائق الامور صيانة لانفسنا ولاوطاننا وان يؤازر دولتنا العلية بعنايته ويجعل لها نصراً مؤزراً بحمايته رأفة بنا انه لرؤوف رحيم .

(المرأة والدين)

طالما أتانا علماؤنا وأدباؤنا ببراهين علمية وأدبية تؤذن بالمساواة بين المرأة والرجل وقالوا بوجوب العمل بما تقتضيه هاته المساواة تقويماً لدرء الهيئة الاجتماعية - وهنا نأتي على ايقاف المرأة في موقف ديني لعلنا نقدر ان نرفع عنها ستار الوهم فنريها للمطالع من ذلك الموقف انها هي والرجل بمنزلة واحدة في هذه الحياة كما هي الحال في الحياة الاخرى

ولقد دخلنا للبحث في هذا الموضوع من باب ديني لعلمنا ان كل ماجاء به اولئك الافاضل من وجوب تسويتها بالرجل لايفي بالاقناع مالم يبحث فيه بحثاً دينياً لان السواد الاعظم عندنا ماانفكوا مصرّين على الاعتقاد بانها أحط منزلة من الرجل وانها ليست فى نفس الامر الأ خادمة له وهم يعتقدون ذلك على اعتقادهم بوحدة منزلتهما فى الحياة العتيدة . فمن العبث اذاً ولوج الكتاب في هذا الموضوع من أبوابهِ العلمية والادبية فانه لا يكون الا كالضرب في حديد بارد . ولا غروَ فان من تقرّر في عقولهم حرمانية تسويةً المرأة بالرجل وقد مرّت عليهم الاعوام والقرون وهم عائشون في ظلمة الجهل حتى أضحت الغلظة والخشونة تراثاً لهم يرثهُ الابناء عن الآباء فلا يمكن اقناعهم الأ بالادلة الدينية . على ان البحث في ذلك من باب ديني خليق بخدمة الاديان ولكن لما كانت

الحاجة ماسة اليه ولم يقم من اولئك الكرام مَن أهتمّ به رأينا ان نأتي عليه قياماً بالمواجب الوطنية المسؤل عنها كل فردٍ منا

وقد يُعاب في هذه الايام التعرُّض للمباحث الدينية وان كانت مباحث عمومية لغير قصد جدال وهذا من العوائد المضرّة التي اقتبسناها عن الغربيين لاننا معشر العثمانيين لفي حاجة شديدة الى هذه المباحث لما ان الاكثرين عندنا لا يتحققون حقيقة مالم يروا مصادقة الدين عليها سواء كانت من متعلقاته اولم تكن فان لم يروا هنالك شيئاً من المصادقة حسبوها كفراً وضلالاً وقد يتفق مع ذلك للبعض من شباننا المتشدقين ان يتخذوها دليلاً على عدم صحة الدين والعياذ بالله فبناء عليه لا يسوغ لاحدٍ من كتابنا ان يأتي على اثبات قضية علمية توهم علاقتها بالدين مالم يشفعها بدليل ديني اذ ليس من مقصدنا

تبديع الحقائق التي عليها تمشي الفلاح ولا من عزمنا الخروج من الدين الى ما خرج اليهِ الغربيون وانما غايتنا الوحيدة تحصيل الحقائق وترويجها بيننا مع المحافظة على العقائدِ الدينية فاذا قال قائلٌ منا مثلاً ان هذا الفضاء واسع لا نهاية لهُ ولم يؤيد قولهُ بتعاليل دينية لا يلبث ان يسمع قول المعترض «وأين السماء اذن» فلدفع مثل هذا الاعتراض التعيس الذي ينبه الاذهان ويحرك القلوب الساكنة ويلقي الناس في الشكوك يجب ان لا يذكر احد مسألة علمية توهم مخالفتها للدين مالم يأت على المطابقة بينها وبينه

ولا يخفى ان التعاليم الدينية كثيرة المرامي بعيدة الغاية قد نفذت فيها الحكمة الالهية كل منفذ بحيث اذا أُشكل علينا أمر من الامور امكن لنا بعد تدبُّرها تيك التعاليم العجيبة ان نجد لهُ حلاً مهما تراءى لنا صعوبة السلوك فيهِ ديناً وتلك معجزة الهية جاءت بها حكمة الله التي أحاطت بتلك

التعاليم البعيدة المرامي احاطة السوار بالمعصم . وليس من شيء يحتمل كثرة التأويل وتوجيهه الى معان مختلفة ومقاصد أكثر من ان تحصى كالمسائل الدينية . على ان المتأمل البصير يرى جلياً ان لا تعلق بين الدين والعلم فسواءٌ صحت المطابقة بينهما أولم تصح فعلى حدّ سوى لان الدين شيءٌ والعلم شيءٌ آخر وسنأتي في المقالة التالية على ما يبين ذلك . ولكن بما ان أخلاق عامتنا تأبى التسليم بحقيقة دنيويه اذا هي لم تطابق التعليم الديني وعندهم ان كل ما خرج من الحقائق عن المطابقة غير مقبول ولو وقع تحت مشاعرهم يجب الاهتمام بالتوفيق بين الدين والعلم ترويجاً للحقائق وقياماً بحقوق راحة ضمائرهم مما هو مسؤُولٌ عنه خاصتنا وتخلصاً من تكفيرهم للجرائد العلمية التي نحن في حاجةٍ الى رواجها بيننا . ترى ما الفائدة منها للبلاد اذا هي انحصرت بين فئةٍ قليلة منا وهنالك

تسعة اعشار العثمانيين او أكثر يعتقونها وتمج اسماعهم ذكر اسمها . هذا واذ قد علمنا كل ذلك نأتي عل ما نحن بصدده فنقول .

خُلق الرجل اقوى جسداً من المرأة فقبض بقوّته على زمام الحياة الدنيا وتولى مهامها بيدهِ وسطا على المرأة وتسلط حتى على ارادتها متخذاً اياها كخادمة . واذ لم يكن لديه في هاتيك الازمنة المتوغلة في القدم رادع أدبي أو ديني يردعهُ عن هذا العمل الوحشي ظلّ الامر كذلك حتى رسخ في ذهن المرأة نفسها انها انما خلقت لاجله فخضعت اذ ذاك لحكم الطبيعة وطاب لها العيش راضية بما هناك من العبوديه الجائرة التي سلبتها قسما كبيراً من مداركها العقلية حتى ضُرب المثل بصغر عقلها ولا يزال مضروباً خصوصاً عند المشارقة حتى يومنا هذا . على ان التمدن الذي انتاب الاقطار الشرقية في

الازمنة الغابرة كان يزحزح شيئاً من الضغط عنها ويقال انها وجدت لنفسها شأناً عظيما عند بعض أمم المشرق في تلك الازمنة ولكن لما انطفأت انوار التمدنات الشرقية عادت الى حالتها الاولى من العبودية والجهالة كما تراها اليوم في أكثر الاماكن من بلادنا .

قلنا مما تقدم انه لم يكن من مسوّغ لضرب الذلة والمسكنة على المرأة غير ما للرجل هنالك من القوة الجسدية التي دفعت به الى ان يصول على المرأة جهلاً وظلماً وتبين لنا أيضاً ان منزلتها كانت تحيا بحياة الآداب والمعارف مما يدلنا ان الضغط عليها نتيجة الخشونة والبربرية ليس الا . ولما كانت أدياننا العظمى الفاعل الاعظم لتهذيب الاخلاق وترقية الآداب وتلطيف الاذواق رفعت عن المرأة معظم ذلك الضغط الفادح الذي ما أنزل الله به من سلطان وجاءت بنصوص صريحة تدل دلالة واضحة ان لافرق

بين الرجل والمرأة لا في الدين ولا في الدنيا وهاك بيان ذلك:

لقد جاء في التوراة ان الباري تعالى خلق المرأة من ضلع الرجل وهذا التعليم الديني المعوَّل عليهِ لما انه اساس التعاليم الدينية المتعلقة بالمرأة اذا فهمناه بحسب معناه الظاهر أي ان المرأة قد تكوَّنت حقيقةً من ضلع الرجل فلا يبقى شبهة في ان الاثنين متساويان في المنزلة لان الله لم يخلق المرأة من الرجل الا ليجعلها نظيره والا لخلقها من شيءٍ آخر أو من لاشيء. اما مايقوله الكثيرون من الناس ان كون المرأة ضلعاً من اضلاع الرجل يقضي بانها جزءٌ منه والكل أعظم من الجزء فهو مردود هنا بحكم طبيعة الخلق الذي اوجده الله من لاجزء ولا شيء وجعله كلا فلا جرم انه قول لايقوله الا الجهلاء لانه كفر صرف . على اننا اذا نظرنا في المسألة من حيثية ما يقولون رأينا ان الافضلية للمرأة وليس للرجل لان هـذا قد جبله الله من تراب الارض

وتلك أوجدها منه من بعد تكوينه فكأنها والحالة هذه خلاصة خلقة الرجل ومع ذلك فلسنا لنقول بمزية الواحد على الآخر في الخلقة لان مسألة الضلع لم تكن الا للاشارة الى وحدة منزلتها . واما مايقوله الناس ايضاً من ان الله قد خلق المرأة معينة للرجل كما جاء في التوراة ويفسرون ذلك بمعنى خادمة فما تفسيرهم هذا الا ضلال وافتراء على الله اذ ليس في المعنى هناك مايشير الى خادم ومخدوم بل فيه مايثبت المساواة ويؤكدها فقد قال الله تعالى هناك « فاصنع له معيناً نظيره » فالاعانة هنا لاتدل على كون المرأة خادمة للرجل وانما تدل على تقسيم الاعمال بان على كل منهما عملا خاصاً به بدليل ان الله سبحانه قد أوضح ذلك بعدئذ عند اخراجهما من الفردوس اذ قال للرجل بعرق جبينك تأكل خبزك معلقاً به الكد والعناء وقال للمرأة مايؤذن بتعلق الشؤون البيتية بها . على ان هنالك

أمراً أوجبه غضب الرب لمخالفتهما الوصية الالهية وعليه فقد
قال الله تعالى للمرأة ما يفيد سيادة الرجل عليها وقال للرجل
ملعونة الارض بسببك . فحكم سبحانه بالقصاص على
كلٍ منهما بما يلائم طبيعته . والحاصل فان قوله تعالى
بسيادة الرجل انما قاله حال الغضب قاصداً الانتقام من
المرأة كما انتقم من الرجل فقدّر عليه المشقة والنصب
ولعن الارض به . وما قوله السابق «فاصنع له معيناً نظيره»
الأ حكم خلقي طبيعي يقضي بكونها نظيره ولاشبهة فيه
وسيأتي بنا في سياق الكلام ما يثبت ان هذه السيادة
لا تحط من منزلة المرأة شيئاً وانما هي أمرٌ اقتضاه الغضب
الالهي وقتئذٍ من جهة وأدّى اليه ضعفها الجسدي من
جهة أخرى .

واذا دخلنا في معنى مسألة الضلع من باب رمزي
حملا على ما يقوله الجهابذة من علماء الاديان من ان أكثر

التاريخ الخلقي المذكور في التوراة جاء مرموزاً به وان
مسألة الضلع رمزية بمعنى ان المرأة لم تتكوَّن حقيقةً من
ضلع الرجل كانت حجة المرأة اليوم بوجوب المساواة
بينها وبين الرجل دامغة لا يتخللها شك والاَّ فالى أي
شيءٍ رمز نبي الله موسى بذلك الضلع ان لم يكن الى
المساواة . لاجرم انه مصروف بجملته اليها وانما جاء
من باب الرمز لتعذر التصريح بها لما انه قد رسخ في
الاذهان ما يخالف ذلك رسوخاً طبيعياً حتى ان المرأة
نفسها لم يكن عقلها في تلك الازمنة ليقبل بالمساواة فما
رأيك بالرجل المتصف بالقوه والخشونه ذلك الذي استأثر
باعمال الدنيا وأبى الا تسلطهُ علي المرأة . على ان حكمة
الله التي لا تحدها العقول لم تترك الموضوع مقصوراً على
ذلك الرمز بل تجاوزته الى التصريح بالمساواة ولكن بغير
التلفظ بها على اسلوب يدل عليها دلالة صريحة فقال نبيٌ

الله وكليمهُ موسى اذ ذاك ما مفادهُ « بما ان المرأة ضلع من اضلاع الرجل يجب عليه ان يترك أباه وأمهُ ويلتصق بامرأته لان الاثنين جسد واحد » فلا يخفى ما في هذا القول من التصريح بالمساواة تصريحاً لا يقبل التأويل . وهذا التصريح نفسه يثبت لنا ان الضلع أمر رمزيي مرموز به الى المساواة بدليل انها نتيجتهُ كما اتضح من قول النبي موسى . فكأن الحكمة الالهية قد جعلت الضلع مقدمة لهذه النتيجة المصرّحة بالمساواة والا فعلى مَ بنى عليهِ النبي ذلك القول ان لم يكن كذلك والله سبحانه قد كتب بأصبعهِ في ذينك اللوحين « اكرم اباك وأمك » فكيف يأمره هنا بتركهما والالتصاق بامرأتهِ لاجرم ان الاشارة الى المساواة اقتضت المجيء بتلك المقدّمة العجيبة ونتيجتها الراهنة على ما تخلل ذلك من قطع النظر عن ذلك المكتوب بالاصبع الالهي . ولا ريب ان المتأمل

في ذلك التعليم الرمزي ومجيئه بنتيجة صرحت بالمرموز اليه على تعذُّر التصريح يقف مندهشاً من غور حكمة الله لانهُ من اعظم معجزات الكتب المنزلة التي يعجز عن الاتيان بمثلها حكماء الارض وفلاسفتها فليعتبر المتشدقون

هذا ولعمر الحق ما من تعليمٍ أدلّ على المساواة من القول بان الاثنين جسد واحد الا اذا اعتقدنا بان نفس الرجل أفضل عند الله من نفس المرأة وهذا باطل لانه اعتقاد كفري يعتقده بعض من أصحاب الشيع غالباً فتأمل

أما الديانة المسيحية فانها قرّرت ذلك التعليم الالهي الذي تقدم ذكرهُ وأمرت المرأة ان تخضع لرجلها وأمرت الرجل ان يتعطف على امرأتهِ وان يخلص لها الحب . فمن هذه الاوامر لا يمكن اقامة دليل على سمو منزلة الرجل وانحطاط درجة المرأة وانما يتضح منها جلياً ان على كل منهما واجبات خصوصية يقوم بها نحو الآخر

مما يدل ان الحقوق بينهما متساوية . أما فرض الخضوع
على المرأة فلا يُستدل بهِ على انحطاط منزلتها كما يوهم
ظاهر الامر لانهُ أمرٌ اقتضته قوّة الرجل كما اقتضى
ضعفها التعطف عليها ولا يحسن بالتعليم الديني الذي جاء
ليلقي المحبة والسلام في الارض الا الامر بذلك لان
هنالك ناموس طبيعي يقضي بخضوع الضعيف للقوي
وناموس أدبي يقضي بتعطف القوي على الضعيف ومن
خصائص التعاليم الدينية تقرير النواميس الطبيعية والادبية
المتعلقة بنظام العالم الانساني . على ان الخضوع امر أدبي
يجب على كل منا القيام به نحو الآخر وعندي ان ليس
من مانع يمنع الرجل المتحلي بالصفات الادبية من الخضوع
لأمراتهِ اذا كان ثمت آداباً ومعارف تتلقّى ذلك الخضوع
بما يليق بالرجل . على اننا لدى التأمل نرى ان الخضوع
لائق جداً بالمرأة لانه عنوان العفة والطهارة وليس هو

الا شيئاً من التواضع واللطف والدعة وكاني به من طبيعتها فهي تأتيه عن دافع غريزي بلا تكلف ولعل للسيادة التي جاء بها الغضب الالهي كما تقدم حداً تقف عنده هذه الغريزة وقفة الرضا وعليه فالمرأة التي تنفر من سيادة رجلها ليست بالمرأة العفيفة

والحاصل فان الديانة المسيحية قد ساوت بين الرجل والمرأة لانها قد فرضت على كلٍ منهما واجبات تليق به وتلائم طبيعته والذي ينعم النظر هنا قليلا يرى ان تلك الواجبات مصروفة بجملتها الى الاخذ بأسباب الاتفاق الذي لا يمكن لاثنين ان يعيشا معاً بدونه فتأمل .

والذي يمكن الحكم بهِ ان الخضوع الذي أمرت بهِ الديانة المسيحية يقرب من قوله تعالى « الرجال قوّامون على النسآء » لان الامر بالخضوع ظاهر من معنى الآية الكريمة . على ان سيادة الرجل التي حكم بها الغضب

الالهي على المرأة قديماً كما مرَّ بنا نراها بادية هنا ولسنا
نعجب ان نرى في الآية مايدل عليها ولا اذا رأينا
الشرع الشريف يأمر بها لانها مقرَّرة شرعاً وعرفاً
فلا بد من اعتبارها وطبيعة المرأة نفسها تشهد بها وانما
العجب ان نرى بيننا من يتخذها على غير حقيقتها التي
أشرنا اليها غير مرَّة فالكثيرون عندنا يتوهمون ان سيادة
الرجل على المرأة لم تكن الاَّ لتدل على ان هنالك سيداً
وأمة وفي ذلك ما فيه من الضلال والافتراء على الله .
على ان قوله تعالى « أما امساك بمعروف أو تسريح باحسان »
يؤذن برفع الضغط عن المرأة وينفي كل ريبة . وفي القرآن
الشريف كثير من التعاليم الآمرة بحسن معاملة المرأة
وهي فيه أقوى معنى مما جاء من ذلك في التعاليم المسيحية

ومعلوم ان أدياننا العظمى اغترفت تعاليمها من ينبوع
واحد الذي هو الحق سبحانهُ فكل ماخرج منها عن أحكام

العبادة وأساليبها يتجه كلهُ الى حكم واحد فلا فرق في مسألة المرأة وما جرى مجراها من المسائل الدنيويه بين تعاليمنا الدينية فان وُجد هنالك من فرق فلا أكثر من اختلافات طفيفة تتعلق باساليب الاستعمال مما يختلف باختلاف أذواق الامم

ولقد فرضت الديانة المسيحية على المرأة غطآء الرأس عند اقامة الصلاة وهذا الغطآء ليس فيه ما يحط بقدر المرأة وانما المقصود منهُ مراعاة العفة والطهارة ولعلهُ غير بعيد عن الحجاب الذي أمر الله به في كتابه العزيز . غير ان الديانة المسيحية قصرت خبآء المرأة على الصلاة مكتفية بمراعاة العفة أوقات العبادة تاركة للاوقات الاخرى هاتيك الوصايا المشددة التي منها من نظر الى امرأةٍ واشتهاها فقد زنى بها . فكأنها نظرت الى وجوب بروز المرأة من خدرها اصلاحاً للاحوال الدنيويه على نحو ماجاءت به

معارف هذا العصر ففضلت البروز على الحباء ونعم التفضيل فانه حسن جداً . ولكن سبحان من جعل لكل فريق منا اسلوباً خاصاً به .

أما ضرب المرأة عند النشوز فهو من خير الامور وأفضلها فأي متمدن فى العالم يتصور امرأة بحالة النشوز ولا يقول بوجوب ضربها . لا جرم ان النشوز ضرب من الجنون اذ لو علقت تلك المرأة الناشزة وجوب الاتفاق بينها وبين رجلها لما نشزت بل كانت بذلت أقصى جهدها فى سبيل الاخذ بأسبابه حرصاً على نظام بيتها وصوناً لشرفها . والجنون فى الازمنة القديمة أيام الرسل والانبياء كانت تغل يديه ورجليه ويلقى في أماكن الظلمة . فالتعليم الديني الذي أمر بضرب المرأة الناشزة قد رحمها كثيراً مما لا شبهة فيه . ولا يتوهمن احد ان فى هذا الضرب ما يفيد انحطاط منزلتها او تنقيص شيء من حقوقها لان هذا كله محفوظ

لها هنالك فاذا تعدى الرجل واجباته نحو زوجته بأن عاملها بخلاف ما أمره الله به أباحت لها الشريعة ان تشكوه الى الحاكم الشرعي والشرع الشريف يأمر بقصاصه لا محالة . فتبين لنا هنا ان المرأة لما كانت غير قادرة على ضرب الرجل أقام الله لها من يضربه عنها فتأمل

فمما تقدم من المباحث الدينية يتضح لنا ان لا دليل ديني على صغر منزلة المرأة اذ ليس هنالك ما يستفاد منه ذلك البتة . فغاية ما استفدناه ان أدياننا أمرت كلاً من الرجل والمرأة بما يلائم طبيعته مما لا سبيل به الى القول بان الخضوع يدل على صغر المنزلة والتعطف يدل على كبرها وقد استفدنا أيضاً ان هاتيك الاوامر كلها يقصد بها مراعاة أسباب الاتفاق حتى تبدو الالفة والمحبة والاتحاد مما لا يتأتى للزوجين صفاء العيش وراحته الا به .

اما الطلاق فهو خير واسطة تدفع المرأة الى مراعاة

أسباب الاتفاق وليس فيه مايدل على انحطاط درجتها بل ليس من شيء أشرف منه اذا تعذّر الاتفاق بين الرجل وامرأته فالطلاق في مثل هاته الحال أمر واجب ضروري لابد منه ولا يعرف للطلاق فضلاً الا من رماه الزمان بامرأة جاهلة لاتفقه لذلك الاتفاق معنىً ولا تعرف له اسماً فهنيئاً لقوم سمحت لهم به ديانتهم . على اني أقول هذا والديانة المسيحية في جانب المعذرة لان الطلاق لايوافق روح الانجيل البتة ويعرف ذلك من طالعه حق المطالعة . على ان اولئك الذين يتعمدون الطلاق لغير سبب موجب تنقطع عنده أسباب الاتفاق واساليبه قد يغضبون العدل ولا يرضون الله والله يمقت الظالمين ويحب المحسنين

ومعلوم ان التعاليم الدينية قد أغفلت بعض اصلاحات دنيويه لتعذر الاصلاح واناطت تغيير ماتعذر اصلاحه لرسوخه بالآداب والمعارف ومن ذلك شيء من مسألة

المرأة . وقد مرَّ بنا تأييداً لذلك ان منزلتها كانت تتقدم بتقدم الناس في مدارج التمدن وتتأخر بتأخرهم حتى انك لتجدها اليوم بحالة تعيسة عند أهل الخشونة . فالمرأة هي مقياس التمدن يُستدل على درجته بها فالاميركيون الذين اشتهروا بهاتيك العواطف السامية التي هي منتهى الفضائل هم في غنىً عن هذه الشهرة لان منزلة المرأة عندهم تدل عليها دلالة واضحة كما تدل منزلتها عند الاوربيين على قصورهم في مراقي الفضيلة اذ لا يزال عليها هنالك كثيراً من الضغط . وليس المراد هنا ان نحذو حذو الامم العالية في أمر نسائنا وانما المراد رفع المعتقدات الباطلة من عقولنا بأن نعتبر المرأة العامل الحقيقي في اصلاح الشؤون الدنيوية فنأخذ في انهاضها من وهدة الجهل ونسعى في أمر تعليمها حتى تبدو لنا منزلتها الحقيقية فيراها جهلاؤنا مرأى العين

وكما تقدم ان التسلط والضغط اللذين لحقابالمرأة منذ
عاش الانسان على وجه البسيطة قد انحدرا بها في دركات
الجهل والتعاسة وهبطا بها الى أقصى مهاوي الذل والخمول
حتى أضحت حالتها من حيث المدارك العقلية أشبه بالحالة
الحيوانية من غير الانسان ولا تزال كذلك في بعض الاماكن
من ممالكنا المحروسة عند من يستعملها استعماله لحماره
وثوره . وعليه فبعد ان كان احتقار منزلتها في عين الرجل
نتيجة ضعفها الجسدي أضحى نتيجة ضعفها العقلي فتقرر اذ
ذاك في ذهن الرجل انها أحط منزلة منهُ وانهُ اشرف منها
في الخلقة ورسخ معتقده هذا في عقله رسوخاً لا تزعزعه
الزوابع – وهنا أقول : ترى أي تعليم كان ينبغي ان تجيء
بهِ ادياننا دفعاً لذلك المعتقد الوخيم الذي رسخ وتمكن فهل
هنالك بالنظر الى ما تحتملهُ المدارك العقلية أيامئذ أشرف
وأفعل من ذلك الاسلوب الالهي الذي جاء به نبيُّ الله

موسى معلقاً حقيقته المؤذنة بالمساواة ببزوغ شمس العلوم والمعارف . وهل يُعقل تعليماً أعظم وأفيد وأدعى الى الصواب من هاتيك التعاليم التي جاءت بها الديانة الاسلامية والمسيحية . فعلى مَ تأبى عقولنا الا الاعتقاد بالباطل أتظن يا هذا ان ذلك الخضوع وذاك الضرب ينزلان شيئاً من منزلة المرأة وأنت تعلم ان الجهل الذي كان سائداً في هاتيك الازمنة يستلزم أعظم من ذلك . على اني اقول ولا أستحي ان رجلا يرفع الضغط عن المرأة الجاهلة لا يكون الا على شاكلتها لان من لا يغلظ على الجاهل يظلمه بل يظلم نفسه اذا كان ثمت علاقة تؤذن بامتداد ضرر الجهل اليه . ولست أريد هنا الضغط المغلظ كلا وانما أردت الضغط الحسن وفقاً للتعليم الديني الذي لا يضر بالمرأة من جهة ويفيدها من الجهة الاخرى .

هذا وكأني بمعترض يقول: كيف يمكن الاقرار

بالمساواة والله سبحانه قد أباح الطلاق للرجل دون المرأة
فالجواب على ذلك ينطق به لسان حال طبيعة المرأة فلو أذن
الله لها ان تطلق رجلها لكان شغلها وعملها الطلاق وبات
القبيح الصورة والقليل المال والمشتعل رأسهُ شيباً بلا
امرأة ولا يخفي ما في ذلك من الاضطراب والخلل بأمور
المعيشة ونظام العيال . ومعلوم ان المرأة أجرى وراء الملذات
من الرجل وأميل الى طلاوة الجديد وأصبي الى الشكل
الحسن خلافاً لما يتوهمهُ بعض الرجال . ولو لم يقيدها
الباري تعالى بناموس أدبي اودع فيها الحشمة والحياء
لكانت احوالها الادبية تعيسة جداً بنوع لا يقل عن
تعاسة اولئك المنبعثين في الملذات الفاسدة من شبان هذا
العصر ولعل هذا الناموس غير موجود في الرجل او هو
ضعيف فيه الاقليلا فمزيتها عليه من هذه الحيثية عظيمة
جداً ولكن لو أبيح لها مع ذلك الطلاق لرأيت لها في كل

مدة بعلاً جديداً اذ لا سبيل حينئذ لذلك الحفز الطبيعي ان يؤخرها عن حقها الشرعي كلما ترقرق هنالك منهل صافٍ ودعاها داعي الحنين حيَّ على الورود . فسبحان من وسع علمه كل شيء فقدَّر اعماله العجيبة بحكمة فائقة

أما قوله تعالى للمرأة « تكثيراً اكثر اتعاب حبلك بالوجع تلدين اولاداً والى رجلكِ يكون اشتياقكِ وهو يسود عليك » كما جاء في التوراة . فيظهر من تعاليم الديانة المسيحية انها حملت تلك السيادة على الغضب الالهي على نحو ما قلنا فيما سبق بدليل انها لم تبن عليها فرقاً فى الاحكام الدينية الدنيوية بين الرجل والمرأة فسوَّت بينهما تسوية تامة ولاريب انها رأت فى السيادة المنوه عنها ما رأته في قولها « فلتخضع المرأة لرجلها » فكأنها صرفتها الى الاغراض التي يُصرف اليها الخضوع على نحو ما مرَّ بنا . ولعل للديانة المسيحية في ذلك عذراً واضحاً لان ما يأتي عن غضب

يذهب به الرضى ٠ وعليه فان لكل من اديانـا الخيار بين
ان تأخذ بشأن تلك السيادة باعتبار كونها امر الهي وبين
ان تغفل امرها بكونها صدرت عن غضب ٠ على ان الاسلام
قد اخذ باعتبار الجانبين فتجد من جهة انه قرر السيادة تقريراً
قضى بالفرق بين الرجل والمرأة في احكام معروفة التي منها
الحكم الالهي « وللذكر مثـل حظ الانثـيين » وترى من
جهة اخرى ان ليس فى الشرع الشريف ما يدل على فرق
فى المنزلة بين المرأة والرجل ٠ والمراد هنا بعـدم الفرق في
المنزلة وحدة الخلقة اي انه ليس بينهما من فرق فى الجوهر
الانساني البتة ٠ وحاش للاسلام ان يقال فيـه ما يقوله
الجهلاء والغرباء الذين لم يلموا بأحكامه لانه والحق يشهد
لم يكن الا لينظر فى الاحكام الدينية من كل وجوهها فهو
يمتاز من هذه الحيثيـة عن غيره من الاديان الالهيـة مما
يدلنا انه متجه بجملته نحو الكمال

واذ كان غرض الجمانة تبين الاضرار والتحذير منها مهما كان نوعها رأينا هنا قبل الانتقال من موضوع المرأة ان نأتي على ذكر طرفٍ مما يُعرف عندنا بالغيرة لانها كثيراً ما تكون سبباً للقلاقل والشرور بين الرجل وامرأته بحيث يغدو ذلك البيت الذي تأواه الغيرة القبيحة مقراً للغموم والاكدار ونكد العيش وما اقبح الحياة اذا كانت كذلك . ولا يخفى ان المرأة هي التي تصون نفسها عن الدنيئة وليس رجلها الذي يصونها فاذا آنس الرجل في امرأته حشمة وحياء ولا تكون الزوجة الا كذلك الا نادراً فعليه ان يدعها وشأنها لانها أعف من ان يراقبها فهي من هذه الحيثية اشرف منهُ وأفضل بكثير فالاليق به ان يصون نفسه عن الدنايا لان ذلك أدعى الى راحتهِ وصفاء عيشهِ وأحفظ لشرفه . على ان كثرة المراقبة قد تنبه ذهن المرأة العفيفة حتى اذا اشتدت عليها وطأتها

دفعتها الى المنكر انتقاماً من رجلها. وليس المراد هنا الخوض

في هذا الموضوع الغير اللائق وانما اردنا التنبيه الى قبح

هذه العادة لانها جاريه في بلادنا بكثرة خصوصاً عند

الجهلاء على انها لو كانت ذات خير لما أغفل امرها الغربيون

الذين يفتشون عن الخير بالفتيلة والسراج كما يقول العامة

والذين يظنهم جهلاؤنا ان لا غيرة لهم على نسائهم وهم

أشرف من ان يُظن بهم كذلك وانما آلوا على أنفسهم

ان لا ينظروا الا الى الحقائق الراهنة فهم يرفضون كل

باطل ووهم وليس التعيس في الدنيا سوانا لاننا نسعى وراء

الغم والقهر حتى في بيوتنا حيث نلتمس الراحة والسكينة

واعلم ان الخالق سبحانهُ لم يخص الرجل بالقوة حتى

خص المرأة بمزايا سامية لم تكن القوة الجسديه لتعد شيئاً

في جنبها الا اذا قلنا ان هذه القوة تقتضي زيادة في القوة

العقلية . لان للمرأة من العواطف الشريفة والخواطر

السريعة مايقضى بالعجب وهي على ضعفها ورقة عاطفتها أقدر من الرجل على تحمل الرزايا والمحن ولها من عذوبة اللسان مع ماأودع الله فيها من اللطف والظرف والأدب مايساعدها على تخفيف المصائب عن رجلها. والذي مرض وكانت ممرضته امرأة يعرف مالها من الاقتدار على اساليب التسلية وتخفيف الآلام فهي بالحقيقة ملاك أرضي ولقد أصاب من سماها بالجنس اللطيف ولكن قبح الله الجهل الذي ذهب بها كل مذهب حتى كاد لا يُعرف لها في بلادنا قدر ولا شأن .

هذا ولقد سبق لنا في المقالة السابقة استلفات أولي الامر الى تحسين مدارس الاناث والذي نراه انه يجب ان يكون تعليمهن الآن مقصوراً على كيفية تدبير المنزل وتربية الاولاد الا قليلا مما لا بد منه . فالاصطلاح الجاري الآن في مدارسهن عندنا لا يفيدنا شيئاً وانما يفيد الغربيين

الذين نظموا المرأة في سلك الاعمال حتى صارت كالرجل فضلاً عن ان المرأة عندهم قد صارت قادرة على تدبير منزلها وتربية أولادها على ماينبغي من ذات طبيعتها أي بدون ان تتلقن ذلك من معلم . فاذا بحثنا بين نساء المشرق عندنا عن امرأة كذلك فلا نكاد نجد واحدة من مئة أو مئتين او لانجد من أكثر من ذلك في بعض الاماكن . ولا يخفى ان الانسان لاينبغي لهُ ان يسعى وراء مافوق حاجتهِ حتى يظفر بالحاجة نفسها والاَّ ذهب بسعيه ضياعاً فالحاجيات أولى من الكماليات بكثير فلا يجمل بنا اذاً ان نتغاضى عن الحاجة وننظر الى مافوقها في حين لاتسمح عوائدنا بانخراط المرأة في سلك الاعمال . فلا بد لنا والحالة هذه من تعليمهن تعليماً يتكفل بحاجة البلاد حتى اذاظفرن بهذه الحاجة الكبرى امكن لهنَّ بعدئذ ان يخضن في مافوقها استعداداً لما يُظن من امكانية انخراطهن في

ذلك السلك مما ليس بمستبعد لان العوائد الغربية آخذة عندنا فى مدارج الارتقاء . أما الآن فسبيلنا ان نهتم بالحاجة أولا الا ترى ان من نسائنا اللواتي دخلن المدارس من لاتحسن تربية ولد واحد لها فماذا عسى يفيدنا ان نراها تكتب وتنشئ وتراسل الجرائد وهي قاصرة عن القيام بواجباتها البيتية على نحو مايقتضيه هذا العصر . لاجرم ان الاهتمام بامر مدارسهن حتى تكون على نوع يتكفل لنا بنوال الحاجة لمن اهم المواجب الحاضرة .

(الدين والتمدن)

يزعم الكثيرون عندنا ان التمدن ينافي الدين بدعوى ان الغربيين ماحصلوا عليه إلا بترك العقائد الدينية فهم والحالة هذه يؤثرون الجهل على التنور بنور الحقائق ويعدون كل متمدن مفتونا في دينه وربما عبروا عن الكفر بالتمدن بدليل انهم اذا آنسوا في امرء مروقاً

الدين قالوا انه متمدن ولا غرو فان الجهل اذا ضرب أطنابه في بلاد خبط أهلها في ظلمة ليل بهيم ليست ظلمات الليالي من الايام الا شموساً ازاءَها ٠

وليس يخاف ان للتمدن حالة ادبية شريفة تعصم التمدن عما يشينه فشأنها من شؤون التعاليم الدينية وما كان كذلك فهو خليق بالاعتبار والاتباع ٠ فالتمدن من حيث هاته الحالة يعد في عداد الادب الديني وهو مع ذلك لايخرج من حيثية حالاته الاخرى عما يقتضيه الدين البتة وسيأتي بنا مايوضح لنا ذلك توضيحاً جلياً ٠

ولا مشاحة ان الغربيين حصلوا التمدن بترك مايوهم انه من العقائد الدينية لابترك العقائد نفسها لان تركهم لهذه اخيراً قد اضر بهم كثيراً واضراره آخذة عندهم بالازدياد اذ قد نشأ عنه عوائد زائفة مخلة وهي التي مقتصرون نحن عليها في الاقتباس عنهم على حسن معتقدنا بصحة

الدين اذ ليس في وسعنا اقتباس الصالح مما منشأه ترك العقائد الباطلة مادمنا نخالها من متعلقات الدين وليس بالغريب اذا جاريناهم في ما نجم عندهم عن ترك العقائد الدينية على عوده بالاضرار على الدين والدنيا معاً وخالفناهم في مايعود عليها بالمنفعة حرصاً على عقائد باطلة ليست من الدين في شيء. لان الجهل يأتي بما هو اغرب من ذلك كثيراً فاذا قابلنا بيننا وبينهم من حيث الفضائل والاعمال الخيريه نقف على امر جزيل الاعتبار ذلك انهم على تركهم للدين يمارسون من شعائر الانسانية مايقال عنده ان هذا هو الدين بعينه ونحن على تمسكنا به لانأتي الا بما يشف عن الظلم والاذى والقساوة والنفرة والعداء ونحو ذلك مما هو مغاير للدين بكليته. فينتج من ذلك ان التمدن مستودع الادب والفضيلة وان الدين اذا خلا أهله من التمدن يتعذر قيامه فيهم على ما ينبغي وهذه النتيجة مشاهدة عياناً فلا سبيل الا لاستخراجها

مما تقدم . ذلك مايدلنا دلالة واضحة على غرابة اضرار الجهل وانه مصيبة عظيمة على الانسان فى الدين والدنيا . وقد يحسب الجاهل نفسهُ سعيداً لعدم ادراكهِ كنه السعادة ولكن هذا لاينفي كونهُ شقياً تعيساً وبضدها تتبين الاشياء . هذا واذا أمعنا النظر في سعادة الغربيين من حيث التمدن وفى مانابهم وسينوبهم من الاضرار الناجمة عن ترك الدين يتضح لنا ان الدين والتمدن اذا اجتمعا معاً كانت السعادة عظيمة جداً . اما القول بتنافيهما فهو حماقة وجهل لانه قولٌ يخالف الحق والواقع كما اتضح ويتضح اكثر مما سيأتي .

لايخفى ان شعائر الاديان الوثنية تقتضي تعليق اكثر الاعمال والعوائد بالدين فيحافظ الوثنيون على عوائدهم القديمة أشد المحافظة ويبدعون كل عمل جديد غير ناظرين الى ماهنالك من فائدة تستلزم الاقبال عليها أو مضرة يقتضي نبذها . ولا يخفى أيضاً ان الله سبحانهُ عند ما أنزل

كتبهُ المقدَّسة لم يبعث لها باجواق من الملائكة ولا خلق لها خلائِق جديدة وانما دعا اليها بواسطة رُسلهِ الاطهار اولئك الوثنيين أنفسهم الذين نحن منهم وهؤلاءِ الرُسل عليهم السلام لمـاَّ لم يجدوا لا كثر هاتيك العوائِد الراسخة تعلقاً بالدين نظروا فى أمرها من حيث المنفعة والمضرَّة فنبذوا ما أمكن نبذهُ وجاروهم في بعضها وأهملوا البعض الآخر مسكوتاً عنهُ لتعذُّر ازالته . ولا شبهة في ان الذي جاروهم فيهِ اكثرهُ من متعلقات المعيشة وما جرى مجراها مماَّ لاغنى لهم عنـهُ لانهم عليهم السلام انما كانوا بشراً مثلنا يأ كلـون الطعام ويلبثون الثياب الى غير ذلك من ملابسات الحياة ومشتملاتها مماَّ يختلف هيئةً وشكلاً باختلاف الاحوال والظروف وأذواق الامم . فاذا نزعنا اليوم اللباس القديم مثلا ذلك الذي كان يلبسه الوثنيـون واستعملهُ الرُسل والمؤمنون من بعدهم ولا يزال بعضهُ

زي الكثيرين الى يومنا هذا ولبسنا اللباس المصطلح عليه في هذا العصر فلا نكون عملنا شيئاً يخالف الدين وانما اتبعنا العوائد العصرية التي اتبعها أنبياء الله أنفسهم لانهم عليهم السلام لم يجيئوا بهاتيك الازياء من عندهم بل هي كما تقدم من أزياء هاتيك العصور فلو كانت أزياء هذا العصر من أزياء أزمنتهم لكانوا استحسنوها واستعملوها كما استحسنوا واستعملوا تلك لامحالة . فاذ قد علمت هذا فقس عليه كل مااستحسن دينياً من مأكل ومشرب ونحو ذلك من مقتضيات الحياة ومتعلقاتها ولا تخش اثماً واخش الله بان تحافظ على لباس التقوى فتجتنب الشر وتعمل الخير .

وأما الذي أهملوه مسكوتاً عنه لتعذر ازالته فهو مشحون بالخرافات والمعتقدات الوخيمة . على ان الحق سبحانه لم يتركها وشأنها بل قد بث في شرائعه المقدسة روح التمدن وأناط به تغيير العوائد المجحفة ونبذ العقائد

الباطلة بحيث لايكون تمدن لايؤمن شر ذلك الذي ظلَّ مسكوتاً عنهُ بحكم الضرورة وعليه تجد المؤمن الجاهل يخلط الحقائق الدينية بالخرافات الوثنية ولا يدري اذ قد تداول الناس ذلك المهمل خلفاً عن سلف جيلاً بعد جيل من أيام أسلافنا الوثنيين الى يومنا هذا ولدينا الآن كثيرٌ من ذلك يعمل به جهلاؤنا وأهم مالدينا منهُ عادة ذهاب اولئك الاسلاف الى تعليق أكثر الاعمال والعوائد الدنيوية بالدين وتبديعهم لكل عمل جديد ولو حسناً. على ان الكتب الدينية قد ذكرت أشياء بحكم الضرورة من ذلك المسكوت عنه اضطراراً بدليل ان كلا منها ذكر شيئاً لم يذكرهُ غيرهُ الا ان العقلاء الذين يدركون الحقائق ويعلمون ان المقصد الالهي من الدين ليس الاَّ العبادة الحقيقية والسلوك في طرق الادب والفضيلة والرحمة يصرفون النظر عن كل ماخرج عن هذا المقصد ولو كان

مذكوراً في كتب الدين لان ليس كل مذكور هنالك دينياً .

فباعتبار ماتقدم تقسم تعاليم الانبياء الاطهار الى قسمين قسمٌ جاؤا به من عند الله وهو تعليم ديني صرف متجه بجملته الى الاحكام الدينية غير خارج عن فحوى الكتب المنزلة وقسمٌ أخذوهُ عن الذين بُعثوا اليهم وهو سواء أخذ استحساناً أو اضطراراً فلا دخل لهُ في الاحكام الدينية أي انه لا يترتب عليه ثواب أو عقاب خصوصاً وهو خارج عن فحوى الكتب المنزلة . فالضابط الحقيقي هنا هو ان الاول كاشف للكتب المنزلة فاذا رأينا تعليما لاحد الانبياء عليهم السلام ليس في الكتاب المنزل الذي جاء به معنى يشير الى ذلك التعليم فهو من قبيل القسم الثاني والا فهو من قبيل الاول . اما الثاني فلنا الخيار بين ان نسلك بمقتضاهُ اذا لاءَم عصرنا وبين ان نغفل أمرهُ اذا لم نر فيه الملاءمة ولا حرج علينا ولا اثم لان ما كل ما لاءَم

هاتيك العصور يلائم عصرنا . والغالب ان هذا القسم لايخلو من تعاليم دخيلة على نحو ما أشرنا في المقالة الاولى لانهُ لما كان خارجاً عن فحوى الكتب المنزلة كان التصرُّف فيهِ سهلاً على الاشرار ذوي الاغراض الشريرة . على ان من هذا القسم أيضاً ماجاء من باب الحكايه للحديث والمسامرة ومهما يكن من أمره فقد تقدم انهُ ليس من الاحكام الدينية التي يترتب عليها ثواب أو عقاب فتأمل

ولا نحب ان نترك هذا الموضوع مالم نأتِ على مثال بسيط ولو جاء ثقيلاً على الجهلاء لان خير الكلام من هذا النحو ماجاء بمثالٍ يبسط مطاوي الحقيقة . فالانبياء الكرام قد علموا بالاصابه بالعين ولكن هذا التعليم لم يأتوا بهِ من عندهم لانهُ من موضوعات الاولين ومعتقدات الامم السالفة وانما الباعث على استحسان الانبياء لهـا هو كون الاصابه بالعين مرضاً كسائرِ الامراض ولايخفى ان المرض

سواء كان من قبيل الاصابة أو لم يكن فعلى المريض ان يتوسل
الى الله بواسطة بعض من خدمة الدين ان يشفيه من مرضه
ولما كان الاولون يحملون أكثر الامراض أو كلها على العين
كما لا يزال الامر كذلك في أماكن الجهل عندنا وكان لا بد
للتعليم الديني ان يأمر المريض بالتوسل الى الله لم يجد الانبياء
مندوحة عن استحسان الاصابة لما انها أبعث على فزع المريض
الى ذكر الله . وعليه فقد جاء رسوخها في الاذهان وسيلة الى
اقامة الغرض الديني المنوه عنه بلا تعب فتأمل . أما كون
عين الناظر تضر بالمنظور اليه فذلك أمر لا يعلمه الا الله
وانما نقول ان لا الاعتقاد بذلك ينيلنا ثواباً ولا عدمه
يوقع علينا عقاباً لان المراد الديني به ان نستعطف الله عند
المرض ونستغفره ونسأله اللطف فاذا قمنا بهذه الشعائر
الدينية كان الدين محفوظاً لدينا سواء اعتقدنا بالاصابة أو لم
نعتقد وليست الاصابة في نفس الامر الا أمراً خارجياً

لاتعلق له بالدين الا من حيث ماعلمت . على ان الانجيل قد جاء بذكر هذه العين الا انه لم يقصد بها مانعتقده وانما جاءت هنالك بمعنى العين الشريرة المعروفة بعين السخط الا ان الكنيسة لم تر بداً من التعليم بالاصابة فاضطرت الى تقريرها حملاً على ماتقدم ولا اشكال فيه على ماأرى مع قصر باعي

ولايخفى ان من كلام الانبياء مالاينظر فيه بحسب الظاهر من معناه لان هنالك تعاليم كثيرة جاءت مرموزاً بها الى اغراض دينية . فقد قال نبي من انبياء بني اسرائيل مايفيد بان الله سبحانه وتعالى يأخذ الابناء بذنوب الآباء ثم قام بعده نبيٌ آخر فقال ان النفس التي تخطئ هي تموت أي ان الابن لا يؤخذ بجريرة أبيه . فالى أي غرض نوجه كلام النبي الاول الذي ظل معمولاً به زمناً طويلا حتى ضرب عند الاسرائيليين ذاك المثل القائل «الآباء يأكلون

الحصرم والابناء يضرسون ، أليس الى ردع الناس من ارتكاب المعاصي رأفة بأولادهم اذا كان لهم بذلك أقوى رادع - تأمل هنا في أساليب الحكمة الالهية وقف متعجباً خاشعاً

ولأمرٍ مسلم به من عموم المعتقدين بالوحي ان الله تبارك شأنه لم يبعث للناس رسله الاطهار الا لسببين كبيرين الاول ليعرّفهم بقدرته الخالقة وانه وحده ربُّ العالم أجمع والثاني ليعلمهم شرائعه الالهية التي تقودهم الى الارتياط الادبي وتسير بهم نحو الكمال . ولما كان هذان السببان لعظيمان هما المقصود من مجيء الانبياء وجب ان نعلم ان ماقد ورد في كتب الدين من القضايا الخارجة عنهما لم يكن وروده كشيء ديني يقتضي الثواب أو العقاب لانه اقد خرج عن حكم السببين المذكورين المبني عليهما جوهر الدين لا يعتبر في نفس الامر شيئاً دينياً الاّ باعتبار كونه مذكوراً في كتب الدين . فاذا وُجد من ذلك شيء يخالف أحكام هذا

العصر وجب حمله على مادعت اليهِ أحكام هاتيك العصور التي جاءت فيها الانبياء. لانه لم يكن هو المقصود من مجيئهم فتأمل (١)

لمَّا كان الغربيون على شاكلتنا في التمسك بمعتقدات الاولين الخرافية كانوا يقاومون الحقائق ويبدّعون كل اكتشاف جديد واستنباط مفيد وتاريخهم في ماوراء تمدنهم مشحون بذكر المنازعات والمقاومات في هذا الصدد فكان قلما ينجو عندهم أحدٌ من ذوي العلم والفضل من الوقوع تحت طائلة الاضطهاد الا اذا آثر الباطل على الحق خوفاً من العذاب فنادى بغلطهِ وجاراهم في خرافاتهم التي كانوا

(١) هذه الفقرة من مقالة لنا عنوانها (مسألتنا الدينية) مدرجة في المجلد الخامس عشر من المقتطف وقد اخذناها بحروفها ما خلا الآخر منها وذلك اولا لاحتياج الموضوع اليها وثانياً للاشارة الى ما لهاتيك المقالة من العلاقة بمقالتنا هذه فعسى ان يطالعها قراء الجمانة لانها مفيدة في هذا الباب

يزعمون انها دينية وان هي الا ترهات جاءت بها اساطير الاولين واغراض المتأخرين - كل ذلك كان يحدث وقوعه من قبل خدمة الدين اذ كان لهم هنالك سلطة عظيمة تفوق سلطة الحكومة وحيث يكون الامر كذلك يسوء حال الرعية . على انه سواءٌ كان الامر كذلك او لم يكن فالجهل هو سبب الضرر وعليه فان تسلط خدمة الاديان على العقول لا يقف عند حده الديني الا بانتشار العلوم والمعارف اذ يعرف حينئذٍ كل من الفريقين خدمة الدين والشعب واجباته الخصوصية . قابل بين التصرفات القديمة التي كانت لخدمة الدين في المغرب ايام الجهل وبين اعمالهم في هاته الايام حيث عرفوا واجباتهم الدينية تجد ان الذنب ذنب الجهل وحده دون سواه . على ان في بلادنا والحمد لله من رؤساء الاديان من هم زينة الدين والدنيا الا انهم لسوء الحظ قلما يوجدون الا في اماكن محدودة وأكثر

البلاد خالية منهم .

نقول: ترى أي عاقلٍ يقدر الحقائق الدينية حق قدرها ويرى بعينيه استنباط عمل جديد يمكن من تعميم المعارف الدينية والدنيوية بانتشار كتبهما بين أيدي الناس بعد تعذر اقتنائها على الخاصة فضلاً عن العامة ولا يعد ذلك الاستنباط ضرباً من الوحي الالهي . ألم يحسب خدمة الدين في المغرب هاتيك الكتب المطبوعة التي جاء بها مخترع الطباعة عملاً من أعمال الشياطين . أرأيت ياهذا اين تكون الخرافات الوثنية وما قولك بها اذا كانت مشفوعة بنصرة نصراء الدين فهل هنالك غير خلع الطاعة واغفال العقائد الدينية الصحيحة التي يجلُّ جوهرها المقدّس عما ينسبه اليها اولئك المؤتمنون عليها . فان لم يكفك ما تقدم عن الغربيين فتعال لأريك أماكن الخرافات الوثنية عندنا باكثر وضوح . انظر هداك الله الى ما عانته الجرائد العلمية في بلادنا ولا تزال تعانيه

لاقل عثرة خرافية وأبسط ماهنالك وأقربه فهماً وأحسنه مثالاً لموضوعنا مسألة الدودة التي قيل انها وُجدت داخل بلاطة الفرن والتي من اجلها أفرغت جعبة اللوم والتكفير على المقتطف الاغر من كل صوب ولولم يكن القائمان بعبء انشائه من العلماء لمزقته نبال هاتيك الدودة كل ممزّق وخسرنا مجلة كريمة علمية يتعذّر قيام مثلها في بلادنا - ترى ألم يملأ عيوننا ويُشبع قلوبنا من الايمان بقدرة الصانع العظيم ماتراه كل يوم من عجائب اعمال هذا الكون البديعة مما هو مبسوط امامنا ومرفوع فوقنا حتى نعزّزها بعجيبة سخيفة مثل هذه . أليست الطبيعة التي تكذب هكذا عجائب خرافية هي نفسها من معجزات الخالق مؤكدة لصحة الدين لما انها خاضعة لناموس يقرر عظمة الباري تعالى أنكذب الطبيعة الناطقة بعجائب الله ونصدق الدودة وشهداؤها على شكلها والا فجرائدنا العلمية كافرة . أرأيت يا هذا أين

تكون الخرافات الوثنية فاحذر ان تأتي بما يعود على الدين بالاحتقار من حيث تعتقد المحاماة عن شرفه لانه أجل وأشرف بما لا يقاس من ان ينزل منزلة حطيطة مثل هذه ولك ان تقيس على خرافة دودة الفرن كل مايترآى لك دينياً من هذا النحو ولا تعجب لاتصال عوائد الوثنيين الينا وقد حال دوننا ودونهم الالف والالفان من السنين لان الجهل يعمي البصائر والابصار معاً حتى يسهل الامتداد بتداول القبيح الى ان يتيح الله لعباده الاخذ بحقائق الامور

ولا يخفى اننا معاشر المتدينين بالاديان الالهية لا نعتقد بعجائب خارقة للطبيعة مالم يكن هنالك أمور خارقة من نحوها جاءت بها وهذه الامور الخارقة انما خصت بانبياء الله ورسله عليهم السلام وقد جاؤا بها تأسيساً للشرائع الالهية وتعظيما لكرامتهم الفائقة . على ان للاولياء والقديسين يداً في صنع العجائب بما نالوه من الزلفى لدى الحق سبحانه

ولكن مهما يكن من أمر هؤلاء { رضي الله عنهم } فلا
تقاس عجائبهم بعجائب الرسل والانبياء لما ان الغرض من
عجائب الفريقين متباين . فدودة القرن لو قال لنا قائل انها
وُجدت داخل بلاطة كائنة على مزار ولي او قديس وجب
علينا تصديقه ولكن هذا التصديق لا يتعلق به تكذيب
الطبيعة ولا تثبيت الدين وانما هو أمر خارجي مستقل لا
تعلق له سوى بكرامة صاحب ذلك المزار فالطبيعة لا يكذبها
مكذب الا اذا شاء الصانع العظيم ان يُبدل من ناموسها
الحاضر الموضوع لها منذ التكوين طريقة تتلاعب بها كيف
شاءت وهذا باطل . والدين غير محتاج الى معجزات الاولياء
والقديسين فصحته أرفع من ان تقع تحت هذا الحكم ذلك
ما قصدناه بقولنا آنفاً ان الغرض من عجائب الفريقين
متباين على اننا ما زلنا ولن نزال نلتجئ في كل دقيقة من
حياتنا الى المراحم الالهية ونطلب اليه تعالى ان يتعاهدنا عند

الشدائد والضيقات كما كان يتعاهد آباءنا وان يدفع عنا بمعجزات قويه مطامع اعدائنا ويؤمننا في أوطاننا ولا يؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا والله سميع مجيب.

هذا وان انبياء الله الكرام انما جاؤا ليعلموا الناس الشرائع الدينية وحدها دون سواها كما يستدل من فحوى الكتب المنزلة ومن مآل تعاليمهم نفسها . فاذا قال اليوم أهل العلم مثلا ان الارض كرة تدور حول الشمس فلا سبيل للاعتراض عليهم وتكفيرهم بحجة ان هذا القول يخالف الدين لان شكل الارض وحركتها من متعلقات العلم والعلم شيء والدين شيء آخر فالذي يطالع الكتب الدينية حق المطالعة لا يجد هناك أدنى تعرض للمباحث العلمية فهي خالية منها خلواً تاماً وانما جاء فيها ذكر الارض ونحوها من المخلوقات العظيمة اظهاراً لقدرة المبدع العظيم شأن التعليم الديني لما هنالك من دعوة الناس الى عبادة الخالق . ولما

كان المعروف من أمر الارض في تلك الازمنة انها منبسطة ثابتة كان لابد من ورود ذكرها في الكتب المنزلة على نحو ما يفيد ذلك . فلو كانت أيامئذ معروفة انها كرة دائرة حول الشمس لذكرتها الكتب الدينية كذلك بملء السرور لان في كونها كرة دائرة فى الفضاء دلالة عظمى على قدرة الخالق جل جلاله . ولكن لم يكن من غرض الاديان الالهية ان تعلم الناس تعليما غير الشرائع الدينية لما في ذلك من تخطي المراد والخروج عن المقصود مما يجحف بأهمية التعليم الديني .

ولقد تقدم معنا ان الكتب الدينية نظرت فى معتقدات الامم السالفة من حيث المضرة والمنفعة وعليه فقد قررت كل ما كان منها غير ضار سواء طابق العلم أو لم يطابقه مما يبرهن لنا ان العلم ليس من غرض الدين في شيء خصوصاً وليس لدينا دليل ديني يؤذن بغير ذلك فعلى من يزعم الالمام

بالتعاليم الدينية ويقول خلاف ما قلنا ان يأتينا بدليـل ديني
يدل على تعلق العـلم بالدين ان كان من الصادقين والافليتق
الله وليكف عن الجناية على الدين . على ان من ينعم النظرهنا
قليـلا يرى جلياً ان القول بتخطئة اهل العلم وتكفيرهم لا
يقوله الا الجاهل لان نتيجتـه تقضي ان تكون الكتب
الدينية كتباً علمية اذ يترتب عليه السؤال الآتي وهو « هل
الكتب المنزلة علمية » والمعنى انـا اذا قلنا لاهل العلم أنتم
كفار لانكم تقولون بخلاف ما قاله الله وأنبياؤه كان لهم
علينا حق الاعتراض بأن يسألونا ذلك السؤال بعينه . ومن
المعلوم في بداءة العقول ان ليس بيننا نحن معاشر المعتقدين
بالوحي من يجسر على القول بأن الكتب المنزلة كتب علمية
أو انها دينية وعلمية معاً . فلا جرم ان تكفيرنا لاهل العلم
سفه وافتراء على الله لانه سـبحانه وتعالى انما أنزل كتبه
المقدسـة ليعلمنا بها أحكامـه الالهية وشرائعـه الادبية

لا لتكون بديلة من هاتيك الكتب التي يتعلم بها اليوم أولادنا في المدارس العالية وعندي ان تمحل المطابقة بين الدين والعلم من الامور التي لا حاجة اليها وقد لا ترضي واضع الدين على الغالب ولكن أبت عوائدنا الا المطابقة بينهما وصبر جميل . ولعل ذلك نشأ عن مقاومة خدمة الدين لاهل العلم اذ نبهوا بمكابرتهم الاذهان وهوروا بالمؤمنين وماخدمة الدين في المغرب الامسؤولون أمام الله عن كل ذلك لانهم أصل السبب . أما القول بعدم علاقة بين الدين والعلم فهو قول لا يتخلله شك لان الدين جوهر مقدس لا يمسه ماس من مواس الدنيا البتة

ومن الغريب ان الطفيف من أعمالنا المتعلقة بالامور الدنيويه لا يخلو في كثير من الاماكن في بلادنا من وجود من يزنه بالميزان الديني حتى كأن الدين أشبه بهاتيك السلسلة الذهبية {أستغفر الله العظيم} التي قيدت بها ملكة

المشرق قديماً وسيقت أسيرة الى رومية. وحبذا لو وقفنا عند هذا الحد المصاغ بالذهب لعل اللياقة تشفع بما هنالك من وصمة التقييد ولكننا قد جعلنا هاتيك السلسلة حديداً أو أدنى فأصبحنا أسارى مغلولي الايدي نرى بأعيننا أسباب التقدم وليس من يد هناك للاخذ بها. على اننا لا نعلم سبباً لهذا الاسر الديني والله سبحانه قد أباح لنا التمتع بسعادة الدنيا غير ما هنالك من الجهل فقبح الله الجهل ما أحجبه للحقائق دينية كانت أو دنيوية — وهنا ليس من شيء أدعى الى التعجب من ان نرى بين معاشر اهل الكتب المنزلة انساناً مقيداً على نحو ما تقدم والقرآن الكريم كتابه — على ان كل ما لدينا من قبائح الجهل ورزاياه هين في جنب هذه النفرة وتباعد القلوب عن الولاء والاخلاص مما يفعله التعصب الوخيم التي كاد يفني حياتنا وينحدر بنا في دركات الشقاء والتعاسة فعسى ان يقوم من أرباب الاقلام

عندنا من يأتينا بما يشف عن عدم جواز التعصب دينياً فكتفي نحن والبلاد شر هذا السم الذي يربو على سم الافاعي

ولا مشاحة ان الغرض يزري بالانسان فيحيد به عن جادة السداد في أمر نفسهِ ويعدل بهِ عن السراط المستقيم فصاحب الغرض يرجح موازينهُ مهما خفت وعندهُ كل ماسواها خفيف ولو كانت هنالك القناطير المقنطرة فتراهُ يصرف قصاري جهدهِ في استخدام ماتصل اليهِ يدهُ من الوسائل قضاءً لبغيتهِ غير ناظر الى ماهنالك مما يستخدمهُ خيراً كان أو شراً . هذا وأفعل الاغراض وأرسخها في النفس الغرض الديني وليس المراد هنا وجوب تنزه المؤمن عن هذا الغرض كلاً لان من لا يتعصب لدينهِ لا دين لهُ وانما المراد ان يقع الغرض الديني في موضعه مؤذناً بالصواب والعدل فان لم يكن كذلك جرى مجرى الاغراض الدنيوية الجائرة التي هي مصدر الشرور في العالم . فالاغراض

الدينية الجارية الآن في بلادنا ليست من الدين في شيء لانها خارجة عما يقتضيه العدل الديني فتأمل .

ومعلوم انه ما من شيء أشد انفعالا فى النفس وأدعى الى النفرة والضغينة من مس الكرامة الدينية وقد قال الله تعالى «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم» فكم أحرى بنا الابتعاد عن مسبة من كان كتابه منزلا أليس الكتب المنزلة جميعها جاءت باحكام الله فهل من وسعنا ان نحكم بمزية كتاب على آخر ومن نحن معاشر العبيد البطالين حتى نعترض على أعمال سيدنا وخالقنا . أنكفر المسيحي وهو صاحب الانجيل الذي سكب الله فيه نعمته وفضله أم نكفر غيره والعياذ بالله والقرآن الشريف مفعم من لدن الله أحكاماً أيجوز ان نقول للاسرائيلي أنت كافر والله قد قال في كتابه العزيز «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله» . ألا أي من هؤلاء الثلاثة

يجوز لنا ان نقوله وكلٌ منهم لديه كتاب الله . ألم يُكرَه الوثنيون على التدين بالاسلام ويُترَك أهل الكتاب مخيَّرين راتعين فى بحبوحة الامن والسلام أوَ لم يعطوا العهد والامانة والضمان . أتجهل ان أهل الذمة غير اولئك الاعداء فاذاً على فرض فتحت دولةٌ منهم حرباً علينا فاي دخلٍ بل أي ذنبٍ لهؤلاء المستوطنين في بلادنا الذين صاروا في كنفنا منذ الف وثلثمئة عام ولا يزالون مستظلين بحمايتنا وزمامنا يدفعون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . ألا ترى كيف انهم لاقل حادث يحدث علينا من ذلك النحو يبيتون عندنا في خوفٍ ووَجل حتى كانهم فئةٌ من اولئك الاعداء حال كونهم ليسوا الا منا وبلادنا بلادهم وصالحنا صالحهم ودولتنا دولتهم وكلنا رعية واحدة لسلطان واحد ليس بيننا الا كل ضارعٍ متضرّع الى الله ان يؤازرهُ بالنصر .

لقد يظهر للقاري مما تقدم ان المسيحي منا غير حاصل على الامن والمساواة والمراد غير ذلك لان للمسيحيين في البلاد العثمانية من الراحة والامن والمساواة مالا ينكره الامن كفر بنعمة مولاه أو سعى في الارض فساداً . وانما مصيبتنا الجهل وحده دون سواه لان جهالنا كثار جداً - على ان لحقائق الاسلام وأحكامه الشريفة رجالا يقومون بشأنها وهم أعيان البلاد وادباؤها يوجدون في كل بلدة من ممالكنا المحروسة . وهنالك لاعمال هؤلاء الاماثل مرآة يُرى فيها المسيحي العثماني جالساً في حديقة غناء نسيمها عليل وماؤها نمير لا يتعامى عنها الا المفسدون . وهو يفاخر بنعم دولتنا العلية كل شرقي نأى عنا لاحدى دول المغرب وذاق من صنوف الذل أشكالاً ولكن ما العمل وجهالنا يصادروننا على مامضى من أزمنة الجهل ويتصدون دون كل خير حتى تضجعنا بسببهم في الشؤون الوطنية وطابت لنا مضاجع الخمول

متناسين ما كان لنا من سابق المجد الا لدى الفخفخة الباطلة فانا نذكره والعجب ملء رؤوسنا .

هذا ولسنا لننتقل من هذه المقالة مكتفين بذكر اولئك الذين اتخذوا الدين دليلا على تكذيب العلم فمقتوا الحقائق وبغضوا التمدن راضين بالجهل - لان في بلادنا كثيراً من الشبان قد جعلوا بعض قضايا علمية تعلموها سبباً لتهورهم في مهاوي الكفر فهم يتشدقون اليوم على قلة بضاعتهم بما مر على مسامعهم من المباحث العلمية التي لم تكن لتمس جانب الدين المقدس بل لم يكن العلم كله ليزحزح عموداً واحداً من أعمدته الراسخة ولا عجب فاننا اذا سبرنا معارفهم الدينية لم نر هنالك غير الجهل والغباوة . ومن أغرب الامور ان نرى العلم اما عثرة يتوقاها الجهلاء واما آلة جهنمية تنقل مدعي المعرفة من مهد الايمان الى وهدة الكفر أليس هنالك حالة وسطى تحط عندها رواحل الدين

والعلم معاً أم قدِّر علينا ان لانجاري الغربيين الا في المضرات أليس الخليق بنا ان نتخذ حوادثهم السابقة نموذجاً يدلنا على الخير أم نظلُّ مصرّين على الجهل وهو يتدرج بنا الى العبث بالدين شيئاً فشيئاً ونحن لاندري كما جرى على أولئك . ألا نخشى عاقبة الابتعاد عن مهد الايمان حيث نفقد التعزية الدينية التي يتعذّر على الانسان تحمل نكد الحياة بدونها ـ اذا فقد الغربيون هذه التعزية فلديهم من خيرات التمدن مايعزيهم ولكننا نحن مساكين فماذا لدينا ياترى ـ لقد تعوّد الغربي ان ينتحر اذا هو لم يجد لديه معزّياً فهل مرادك أنت أيها الشرقي ان تفعل فعلهُ ـ مسكين أنت وأي مسكين لقد هوّرت بنفسك على ضعفك في بلاءٍ عظيم أليست تقوى الله خيراً لك وأبقى .

والحاصل فلا بدلنا لاصلاح أحوالنا الدينية والدنيوية من الاخذ بحقائق الامور فاذا أخذنا بها علمنا علم اليقين

ان الدين ليس هو الا أمراً عملياً وهو القيام بالواجب نحو الله ونحو الناس وان الدين والتمدن شيئان متفقان - هو ذا الغربيون قد فتنوا في دينهم ولكن أعمالهم لا تزال كما سبق وقلنا غير خارجة عن الاوامر الدينية وهي تزداد اتجاهاً نحو الفضائل بازدياد تمدنهم فهم من هذه الحيثية أفضل منا بكثير خصوصاً وهم يأتونها عن ارشادات عقلية خالصة للخير والفضيلة بلا تكلف ولا خوف من عقاب أو انتظار ثواب وانما لهم هنالك لذة طبيعية يشعر بها من يسلك بحسب مواجب الانسانية - تلك هي ثمار التمدن اليانعة التي يأبى الكثيرون الا تحريمها جهالة وحماقة ويأبى الله الا جعلها في عداد الطيبات التي أحلها لعباده .

التمدن والشرق

مهما بالغنا فى التمدنات الشرقية الغابرة وأطنبنا في مديحها وقلنا بفضلها وفاخرنا عالم المغرب بها فلا يعد ذلك الا من قبيل نسيبٍ عُطلٍ يفاخر رجل الدنيا بأبيه أو بالحري يفاخر رجلا بلغ بعزمه وحزمه من المجد والرفعة ذروة لم يبلغها أبوه بل لم يرها حتى ولا في أحلامه . فالمفاخرة من هذا القبيل ليست مما يعتدُّ به لانها نتيجة القعود على وسادة بالية والقصور عن تحصيل مفخرة جديدة . فالاجمل بنا ان نترع عنها حاسرين عن ساعد الجد فى البحث عن هاتيك المبادئ الصحيحة التي بها توصل الغربيون الى التمدن الاكيد الثابت لعلنا نعثر عليها فنجنى المفيد ونجتنب المضر . ترى ما الفائدة من مفاخرة ليس وراها غير الذل والانحطاط وما الفائدة أيضاً من الاهتمام بمجاراة الغربيين والسعي وراء

الفلاح ونحن لا نعرف كيف نجاريهم ولا الى أي جهة نوجه مسعانا . أليس الاجدر بنا ان نبحث أولا عن طريق النجاح ثم نقصده منها ونحن على يقين من الوصول اليه الامر الذي لا يتم الا بمساعدة الحكومة واتفاق الرعية حيث يتهيأ اذ ذاك الاخذ فيه بيد واحدة قويه مطلقة لا يثنيها محذور ولا يعارضها معارض .

ولقد كان التمدن الشرقي يسمو ويرتفع حتى يبلغ معظمه ثم يأخذ بالانحطاط والاضمحلال بخلاف تمدن هذا العصر الذي يمكن الحكم ببقائه ما دام الانسان موجوداً . فلا جرم ان الاولين كانوا يجهلون حقيقة التمدن المتكفلة بثبوته وانهم كانوا يأتونه من غير أبوابه ولا غروفان معارفهم الناقصة لم تكن لترشدهم الا الى حيث يكون النقصان . على ان هاتيك التمدنات التي أخنى عليها الزمان وطوت آثارها الايام لخلوها من وسائط النمو والثبوت قد أرشدت الغربيين

الى الحقيقة فعرفوا بها الجهة التي يجب الاتجاه اليها في سبيل التمدن حفظاً له من الزوال اذ وقفوا باستقراء الحوادث الشرقية التاريخية على معرفة الاسباب التي أدت الى الصعود والتي افضت الى الهبوط فراعوا الاولى واجتنبوا الثانية . فبهذا الاعتبار مع ما أخذوه عن متمدني المشرق المتأخرين يُقال بفضل الشرق على الغرب ولكنما الفضل الحقيقي الراهن لمن أخذ بحقائق الامور وعمّ فضله المسكونة وأتى بما لم يأت بمثله أحد غيرهُ من العالمين

ولامراء ان تمدن هذا العصر لم يسبق له نظير مذ خلق الله العصور وأوجد الانسان لانه قد رسخ على قواعد علمية ثابتة وحقائق أكيدة راهنة فأضحى جزيل المنافع وافر الخيرات وهو على كونه كذلك وعلى ميل أهله لنشره وتعميمه صعب المراس فقلما يتأتى الانتفاع به لغيرهم بل كثيراً ما يضر ببعض الامم . فيشترط للانتفاع بتمدن

سام منيع كهذا ان يكون هنالك استعداد يمكن من القبض على زمامه فان لم يكن هذا الاستعداد أفضى الى التأخر وقد يؤدي الى الانقراض . وليس الذنب في ذلك ذنب التمدن فقد شوهد أمم ضاهوا الغربيين في تمدنهم فجنوا ثماره اليانعة وفازوا بخيراته. وانما الذنب ذنب عدم القابلية للارتقاء وقد يكون ذنب التقاعد والاهمال على وجود القابلية لموانع تحول دون النهوض مما هو واقع علينا . فنحن اليوم نذم التمدن لانهُ قد أضر بنا كثيراً والصحيح انه نافع في ذاته غير ضار ولو لم يكن كذلك لا ضر بأهله فما أشبهنا بمن يذم الزمان والعيب فيه.

على اننا ما دمنا مواصلين السير في خطتنا الحاضرة التي ليست من خطة التمدن في شيء وليس من وسعنا العدول عنها لاستيلاء الجهل علينا فقد يحسن بنا ان نقبح يوماً دخل فيه بلادنا اذ كان لنا غنى عنه كما كان لآبائنا . ولكن

اذا أمكن لنا السير في خطة التمدن الصحيحة رأينا ان هاتيك السعادة التي كانت لآبائنا في مراتع الجهل ليست الا تعاسة ازاء التمتع بحقوق التمدن وخيراته . فبهذا الاعتبار يمدح التمدن قوم ويذمه آخرون والتعيس من ذم لان من يذم السعادة لعدم مقدرته على تحصيلها فهو تعيس بالطبع . ولا نعجب لهذا فقد تفتح أبواب النفع وكثير من الداخلين لايقدرون على الانتفاع . فالتمدن قد أصبح اليوم عندنا وعند اكثر امم المشرق منتشراً مبسوطاً كالرزق ولكن ماكل ما كان كذلك هان نواله فمن الناس من لايحصلون على الكفاف من الرزق الا بشق الانفس ومنهم من يتعذر عليهم ذلك فلا يرون الا دونه فيقضوا العمر مابين الكدح والكد من جهة والغموم والاكدار من جهة اخرى وآخرون قد يدفعهم الفقر حتى انك لتجد عيالاً يبيتون على الطوى وليس في البيت كسرة خبز يأكلونها ويوجد

في هذه الايام التعيسة كثير من هـذه العيال بين اولئك المعروفين باصحاب الطبقة الوسطى الذين تأبى طباعهم مهما ساءت الحال الا ان يجعلوا بينهم وبين الدنيئة حجاباً مستوراً ومن الضغط الفادح ان يخرج الواحـد منهم الى السوق مفكراً في أمر القوت وعليه منهُ وقد يحاكي الجبال فيجد في طريقه من يستدعيهِ لدفع مايعرف بالتمتع أو يطالبهُ من قبل الطائفة بما كتب عليهِ مما يُعرف ببدل مال العسكرية عنهُ وعن أولادهِ الصبية الصغار الذين باتوا جياعاً – ولا تقل ياهذا ان الدستور الهمايوني الذي نشر أعلامهُ جلالة مولانا الخليفة لايسمح بذلك اذ للتمتع نظام محدود ومال الاعناق مفروض على جماعـة مقتدرين على الدفع – لان الحكام غير جلالة مولانا السلطان حفظهُ الله وجمجمة بعض الاغنياء في الاسواق اذا أُضيف على الواحد منهم ريال أو ريالان من مال الاعناق تزيد الطينة بلة – ترى مَن منا

يجهل ان جلالته وقاه الله شر أعدائه ساهر على راحة رعاياه الامناء ألم ينشر ألوية العدالة في كامل انحاء السلطنة أو لم يصغ الى كل من شكا اليه وتظلم أنسينا تعطفاته واعماله الخيرية منذ تبوأ عرش الخلافة العظمى الى اليوم أم تناسيناها بسبب الحوادث الاخيرة . ترى أي ملك من ملوك المغرب تعصى عليه فئة من رعاياه وتطغى ولا تلقي هنالك مالقي العصاة عندنا أيعصى العبد مولاه ولا يؤدب على انه سواء كانت هاتيك الحوادث بامره كما تزعم فئة منا وهو غير صحيح لما عهد في جلالته من التعطف والحلم وطول الاناة أو عن ارتكاب اتاه الجهلة من الاهالي وهو الاصح لحدوث مثل ذلك في بلادنا من قبل فقد نالوا جزاءهم ولا لوم هنالك ولا تثريب ـ ولكن قل لي ناشدتك الله هل أنت متمتع بنعم العدالة التي أسبغها عليك جلالة مولانا ولي النعم أم هنالك رجال لا يعطون مجاناً كما أخذوا

فعلى م اذن لاتفقه عقولنا ان الحكام غير جلالة مولانا السلطان الاعظم ذلك الذي أودع الله فيه من العواطف الشريفة والسجايا السامية مايجعله تاجاً على هام الملوك - هذا ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول

فاذا قابلنا بين أصحاب هاتيك الطبقات التي ذكرناها مع مايتخللها من الحالات الاضافية ذوات الشظاف الى أدنى مايكون وبين ذوي الطبقات العالية على اختلاف درجاتها ولا سيما أولئك الذين يسمو بهم السعي وراء الرزق في أوج الطبقات العليا حتى تغدو أشغالهم أبواب رزق يدخلها كثيرٌ من الناس للارتزاق . فالى أي شيء تنسب هذا الفرق في تحصيل الرزق والله قد بسطهُ في الارض لكل انسان أليس الى الاستعداد والواسطة معاً .

لاجرم ان حكم التمدن في الامم حكم الرزق في الافراد فحيث لايكون استعداد مشفوع بالواسطة الفعالة فلا سبيل

الى التمدن . وعندي ان أمة لاتقدر على الانتفاع بمنافع التمدن خيرٌ لها الاستمرار على الجهل مدى الزمان وهي لاتشعر بما هنالك من الشقاء والتعاسة من ان تدخل نادي التمدن وليس من حظٍ لها فيه سوى الانخراط في سلك الخدم تعمل لاولئك المتصدرين فيه هذا اذا ساعدها الحظ والا لبثت هناك في العتبة بلا عمل - لان الانسان اذا استمر على القبيح ولم يرَ الحسن فلا يسوءهُ أمرهُ ولا يشعر بقبحهِ وقد يعدهُ حسناً ولكن اذا رأى الحسن بعينيه ولم يقدر على اتخاذه بديلا مما لديه من القبيح تنغص عيشه وذاق الموت ألواناً . وليس المراد هنا بعدم المقدرة قصور مداركنا عن تحصيل الحسن لان قوانا العقلية والحمد لله ليست بأضعف من التغلب على حقائق التمدن والانتفاع بمنافعه وانما المراد عدم وجود الوسائط التي بها يبرز الاستعداد من القوة الى الفعل وبدونها يظل هناك معطلا الى الابد

كانه لم يكن ٠

على ان للواسطة أهمية تربو على اهمية الاستعداد ألا ترى ان كثيراً ممن يناطح استعدادهم السحاب قد أغفلتهم قلة الوسائط حتى تركوا في زوايا النسيان يقضون أيامهم في المطلة والخمول وغيرهم ممن لا يصلحون للاعمال قد فتحت لديهم الوسائط أبواباً متنوعة من المصالح وهم في غاية النجاح - على ان الغفلة عن الاخذ بالواجب وبقاء أكثرنا على الجهل لمن الامور التي تحول دون الاستظهار على التمدن ٠ فلو منحتنا اليوم دولتنا العلية كل مايمكن من الوسائط لتعذر علينا مع ذلك الاستظهار عليه وقد شوهد ذلك عياناً فى الغربيين انفسهم لانهم لم يقتدروا على كبح جماح التمدن وركوب صهوته الا بعد ان هبوا من غفلتهم وجنحوا الى الحقائق بكليتهم نابذين كل عقيدة وخيمة وخرافة فاسدة تتصدى دون العروج فى مراقي التقدم ٠

وللضعف يدٌ قويةٌ في استحالة ادراك النجاح فلا بد
للرعية الراغبة في التقدم والفلاح من الاخذ باسباب العز
والمنعة خصوصاً اذا كانت مجاورة لامم اشداء يترصدون
ضعفها ولا يخفى ان لدينا مالا ينكر معه الضعف فمن ذلك
ما نراه فينا من عدم الولاء والوئام ومن انفراد كلٍّ منا
بمصلحته الخصوصية غير مبالٍ بمصلحة غيره نجحت أو لم
تنجح وربما تمنىَّ لها عدم النجاح أوسعى وراء ذلك واذا
عثر أحدٌ منا يوماً ترك وشأنه بل قد يشمت به الضاحكون
ولا يأخذ بيده الا مَن يزيده عثرة ومن أغرب الامور
انك لاتكاد تجد في بلادنا عاثراً نهض والويل لمن منا
يمسي وزمام اشغاله بيد القوي فانه يغدو فريسة المطامع
تقلبه تلك اليد القويه كيف شاءت • على ان من رجالنا
الذين ائتمنتهم الدولة على حقوق العباد من ينظرون الى هذه
الامور بعين الغضب فيرفعوا الظلامة عن الضعيف ويقتصوا

من القوي - اما الصالح العام فقلما يوجد في بلادنا من تحفق بهم رايته فعندنا المثقال الواحد من الصوالح الشخصية لاتقاس به القناطير منه وربما بعناه بالمال ولا أسف وأما التعاون وتأليف الشركات على أنواعها التي هي ينابيع الثروة وأبواب رزق يدخلها كثيرٌ من الاهالي للارتزاق فمن الامور الغير الملتفت اليها في بلادنا الانادراً ولعلها على زعم البعض متعذرة علينا من بعض الوجوه - على ان ما لدينا من التحزب الديني الباعث على انقسامنا هو البلة الكبرى لهذه الطينة ولا حاجة الى الكلام فيه بعدان ابنا اضراره ومواقعها وانما نقول: اذا فرضنا ان أدياننا سوغت لنا العداء وتباعد القلوب كما يوهم ظاهر تعاليمها ورأينا ان أحكام هذا العصر تقضي بالوئام والاتحاد فبأي الامرين نعمل أنتدجج كل منا في شكته الدينيه ونظل في حرب دائمة لاهدنة تتخللها ولا صلح يعقبها أم نسلك خطة

السلم ونوجه اهتمامنا الى ما فيه انتظامنا في سلك هذا العصر
الذي قد أشرقت فيه شمس التمدن والافق الشرقي لا يزال
مظلما . ألسنا نعلم علم اليقين ان المسوغات الدينية ليست
بذات حكم يبنى عليه اثم الترك فكم أولى بنا ترك مسوغ
من هذا النحو خصوصاً وقد يعد تركه في هـذا العصر
فضيلة قدّام الله . لاجرم ان الجهل قد بلغ منا مبلغه الاعظم
حتى لم نعد قادرين على معرفة الخير من الشر فعسى ان
يتداركنا الله برحمته ويهبنا عناية خصوصية تساعدنا على
تغيير أطوارنا وتحسين أحوالنا حيث يتحصل لدينا من
مبادئ التمدن ما يؤمل معه احراز العز والمنعة وكف اولئك
المترصدين عن التداخل في شؤونها . ولا بد لاقامة
حدود العدل الذي نشر أعلامه جلالة مولانا الخليفة والذي
هو أساس الملك ونظام البلاد وحياة الرعية من رجال
ذوات ذوي نزاهة يضحون حياتهم على مذابح هاتيك

الحدود وفقاً للمقاصد الشاهانية .

واذ كان الشيء بالشيء يذكر رأينا ان نأتي هنا على ذكر عطوفتلو حسين حلمي بك والي ولاية آطنه البهية فانه والحق يقال قد جمع بين عدالة العمال في صدور الاسلام وبين أعمال أفاضل العمال في مراكز الامم المتمدنة. وقد أخذ الركبان اليوم يروون أخباراً من هذا النحو عن حضرة دولتلو ناظم باشا ملجأ ولاية بيروت الجليلة فلنا من هذين العاملين العظيمين دليل قاطع على وجود أمثالهما بين رجالنا مما يبعث بنا على الافتخار ويحدو بالدولة الى الاهتمام بانتقاء الرجال . ولسنا لنسكت هنا أيضاً عن ذكر سعادة متصرفنا محمد ناظم باشا في مرسين فانه لرجل همام جدير بأطيب الثناء . نسأل الله ان يكثر من أمثال هؤلاء العظام لان بحسن ادارة الحكام عمار البلاد وراحة العباد.

تقدم معنا ما دلنا على ان تمدن هذا العصر نافع في ذاته

غير ضار وان الاضرار التي لحقت ببعض أمم المشرق من جرّاه تسببت عن عدم القابليـة للارتقاء أو عن موانع غيرها كائنة هنالك وكل ذلك مثبت بالمشاهدة فهو غني عن اقامة الادلة عليه . على ان منشئي هذا التمدن قد يسرّهم انحطاط الشرق غالباً رغماً عما نراه من اقبالهم على تنويره ومنفعته بدليل انهم لا يريدون ان يروا فيه قوة تضاهي قوتهم لما انه محط مطامعهم فهم من هذه الحيثية أعداؤنا بل أعدا الشرق كله لان بدون القوة يتعذر الحصول على التمدن ـ فكأن مسعاهم وراء تنويره يمثل لنا عروس التمدن بارزة بجمالها البديع حتى اذا شغفتنا حباً حالوا دون الوصال فنحن في ذلك على نحو من قال

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

ولدينا عدا حيلولتهم من أحوالنا الداخلية مما مرَّ بنا ذكر شيءٍ منهُ ما يربو على أهوال هذا الشاعر . على ان عدم

ارادة الغربيين بتقدم الشرق لا يمنع الشرقيين من الحصول عليهِ اذا هم تجنبوا الاسباب المؤدية الى تداخل أولئك في شؤونهم لاننا نعلم يقيناً انهم لا يخرجون عن الاحكام الدولية فلا ينتظر منهم ان يعتدوا يوماً على مملكة من ممالك الشرق لغير سبب موجب . على ان أغراضهم المتباينة قد تسند جانب هاتيك الاحكام فلا يتأتى الاعتداء لمن يرغب فيه منهم لان بعضهم على بعض رقيب ولكن قد يمكن لدولة رغبت فيه منهم ان تمد باصابعها الى حيث يلوح لها امكانية ايجاد أسباب تستدعي الاعتداء والتداخل توصلا الى أغراضها غيران الذنب في ذلك ذنب الشرقيين انفسهم فقد آن لهم ان يتعلموا - ترى ماذا يمنع عمالنا من قطع هاتيك الاصابع بسيف جلالة مولانا السلطان القاطع سيف العدل والمساواة

أما ما يظن من ان الخيرات الشرقية قد كتبت للغربيين فليس للشرقيين الا أقلها فغير صحيح لانه اذا أمكن لامة

شرقية الانتظام في سلكهم انتظاماً يخولها دفع كل مراقبة وتصدي ووفرت لديها معدات التمدن اقتدرت على الانفراد بالانتفاع من خيرات بلادها ولا حرج لان الذي يمنع المشارقة من الانفراد بخيرات أراضيهم انما هو قصورهم عن الانفراد ليس الا . وما قصورهم الا نتيجة الاهمال والتواني وعدم الاخذ بحقائق الامور . ولا سبيل الى القنوط من ذلك الامكان فقد تقدم انه ليس بالامر الممنوع لاسيما وليس بالعسير على رعية كبيرة نظيرنا نحن العثمانيين اذا نزعنا من بيننا الضغائن الدينية وتمسكنا بالعصبة العثمانية سالكين سبل الولاء والاخلاص نحو الدولة والوطن

أما مطامع الاوروبيين في الشرق فقد سلبتهم القسم الافضل من تمدنهم فتراهم عندها أشبه بالامم المتوحشة فهم يهرقون الدماء ويجرون الويل على العباد توصلا الى

أغراضهم ولدينا أفصح ناطق بصحة ذلك الحرب الاخيرة التي شب لهيبها بيننا وبين اليونان فقد كان في وسعهم منعها لو أرادوا ولكن أبت أغراضهم الا ان تطوق أعناقهم بدماء الشهداء منا ولسوف يجازيهم الله بما فعلوا والله خير الماكرين . ولا نعلم متى تنتهي هاتيك المطامع الملعونة فينتاهوا عن المنكر ويكفونا شرهم فان لم يتقوا الله ولن يتقوه فلاأقل من اتقاء العدل والانسانية اللذين هما أعظم دعائم التمدن الذي يدعونه والا فحسبنا الله ونعم الوكيل . على اننا لسنا لنستغرب شيئاً من معدنه

لان همجية اسلافهم لا يزال لها أثراً في فطرتهم ولا عجب فان الزمان الذي مرَّ على تمدنهم لعله غير كاف لازالة الهمجية عنهم ازالة كلية . ولا يعترض على ذلك بفضائل الاميركيين لان تلك أمة قد تغلبت على الطبيعة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ـ أما الذي يظهر لنا من

أعمالهم فهو انهم يجنحون الى ان يروا مثال الانسانية ممثلا على مراسح أعمال الشرقيين كما هي الحال عندهم فلا يرتضون ان يروا فى المسكونه مرسحاً وحشياً البتة خصوصاً في الاماكن المجاورة لهم فان رأوا عمدوا الى القوة وقاوموا أشد المقاومة ـ كل ذلك يفعلونه نصرة للانسانية . على اننا لسنا بواثقين ان كانوا أنصاراً لها حقيقة كما يدعون أو انهم اتخذوها ذريعة لامتداد سطوتهم ونفوذ أحكامهم فى الشرق ولكن مهما يكن من ذلك فلا يضر الشرقيين التمسك باهداب ذلك المثال البديع بل ينفعهم نفعاً عظيما جداً فما أحوجهم اليه وما أغناهم عن معلم يعلمهم اياه ويتهددهم بغضبه انهم لم يحسنوا تعلمه. أليس الاجدر والاجمل بهم ان يقبلوا عليه من تلقاء انفسهم كسباً لفوائده وكفا لاولئك المراقبين فضلا عما هناك من اكتساب الاخلاد الى الراحة والسلام حيث ينصرف الوقت بجملته في سبيل التحسين

والاصلاح ونحوهما مما يقويهم وينظمهم في سلك الامم المتمدنة وهم بمأمن اذ ذاك من شر التحرش والتداخل ٠

لا جرم ان الرعية الجاهلية تجلب الشر على راعيها وتلقي البلاد في أسوأ حال حتى يتعذر اصلاحها فقد أفل بدر العصر التاسع عشر أوكاد ونحن لم نر حتى الآن مبدأ واحداً من مبادئ التمدن وأنى لنا ان نراه وعقولنا تحاكي الصخر الاصم في الغلظة ٠ أليس السواد الاعظم عندنا يقولون دعونا على ما كان عليه آباؤنا فما أحلى العيش في ظلال الجهل وهم حتى الآن لم يدر في خلدهم ان ذلك الجهل قد اكتنفته أشعة العرفان فأصبح محلا للذل والانحطاط

- ترى ماذا ينبغي لاب ان يصنع من الوسائط التي ترقي باولاده في مراقي الفلاح اذا هو لم ير فيهم همة للطمح في طلب العلى أليس عليه ان لا يتجاوز في ترقيهم درجة يخشى عليهم فيها من السقوط ٠ وماذا ينبغي لدولتنا العلية

ان تصنع وبأي وسيلة تتوسل الى ترقية رعية جاهلة لم تخلق الا للقلاقل والمشاغب والتخريب فهل هنالك غير السعي في تثقيف العقول وتهذيب الاخلاق قبل كل عمل جديد.

ومن الغريب ان الجهل ضارب أطنابه عندنا في كل صقع ومكان حتى انك لتجده في المدن المزدانة بقبب المدارس وتلك ضربة ذريعة أشد فتكاً بالناس من الاوبئة ويالها في هذا العصر من عار. فلا جرم ان تعميم المدارس المجانية في كامل انحاء السلطنة وانشاءها على مبادئ العصر واكراه الاهالي على ادخال أولادهم اليها ذكوراً واناثاً مما لا واسطة لتقدمنا سواه . ذلك ما نلتمسه من مراحم دولتنا العلية فلعلها تنظر فيه بعين الاهتمام اذ لا تقدم لبلاد تغلب الجهل على سكانها فالقائلون اليوم بوجوب الاسراع الى ما فوق ذلك انما هم في ضلالٍ مبين فليس اسراعهم الا تسرعاً الى الشر لمنافاته روح البلاد.

ولا يخفى ان الانسان غير مقصور على الاعمال المتعلقة باحواله المعاشية بل له أيضاً أعمال أخرى خارجية تأتي بها صفاته التي أودعتها فيه الفطرة والتربية . فاذا رأيت انساناً لا يأتي الا بالاذى فاعذره لانه لم يتعلم صنع الجميل فهو مضطر بحكم الطبع الى عمل الشر ولكن لا تعذر تلك التي ربته في أحضانها وهزت له السرير بيمينها وظل ملازماً لها يرى أعمالها ويسمع كلامها حتى يفع فخرج يعمل بما رأى وسمع فان رأيت ان تعذرها فاحذر هداك الله ان تعذر بلاداً أهملت تعليمها .

هذا ويوجد في بلادنا كثير من السفلة الرعاع منتشرين بكثرة في كل مكان يفاخرون بالقتل والضرب والاذى والرذيلة وليس من عمل لهم غير الجري وراء الفساد وتكدير الراحة العمومية وأعمالهم المعاشية قلما تلهيهم عن القبائح والنقائص لانها مقصورة على صنائع بسيطة وأعمال دنيئة

وربما كان أكثرهم يتعيشون من السرقة ونحوها من الرذائل . وعندي ان هؤلاء الحثالة شر من أولئك المتمردين القائمين في أوربا على ساق وقدم لان لاولئك قواعد تمشي عليها أعمالهم وهي ولئن كانت غير حميدة فقد يرضيهم أقل شي يقرب من غاياتهم ويحدو بهم الى السكينة زمناً . وأما حثالتنا فهم قوم طغاة قد أطلقوا لانفسهم العنان منبعثين في المعاصي يغضبون الله ويكدرون موارد الناس . فلابد لهؤلاء وأمثالهم من جهلاء البلاد الذين ليس من وسعهم تعليم أولادهم من انشاء مدارس مجانية على نحو ما تقدم لانها تتكفل بتهذيبهم فتأتي بهم الى حظيرة السكون والظرف حيث تتخلص البلاد من شرهم وأذاهم وربما اذا نال بعضهم حظاً من المعارف تحول شرهم الى خير فيعود عليها بالمنفعة .

ومعلوم ان تثقيف العقول وتهذيب الاخلاق وترقية

الآداب نتيجة التعليم الذي تتكفل به اليوم المدارس القانونية فما يفتتح منها لهذا القصد النبيل على نفقة محبي الخير يعد من أفضل الاعمال الخيرية . ولا حاجة هنا لانهاض همة أغنيائنا لانهم قلال في بلادنا خصوصاً وان الاعمال من هذا النحو ليست من عوائدنا وليس بالغريب فاننا جميعنا كافة على رغبتنا في مجاراة الغربيين في طيباتهم لم يتحصل لدينا غير ما هنالك من الخبائث فنحن على حرمان من محاسن أعمالهم حتى من الاعمال الخيريه الجاريه عندهم مجاري السيول - وهنا نذكرهم بما لهم علينا وعلى الشرق كله من الايادي البيضاء ولاسيما أولئك الافاضل الاميركيون الذين يعملون الخير فى العالم لوجه الله

أما تعميم المدارس الاجبارية وانشاؤها على مبادئ صحيحة شريفة يغتذي بلبانها أولاد العثمانيين على اختلاف الاديان والمذاهب فمما لا نجاح بدون الشروع فيه بادئ

بده لان ثلاثة ارباع الرعية أو أكثر عائشون في ظلمة من الجهل حالكة يرشقون بعضهم بعضاً بالنبال الدينية ولدينا من نبل الدهر ما يزيدنا نبالا على نبال. ولا مراء ان تركهم على هاته الحال التي يستحيل معها مباراة الامم المتمدنة التي نحن مضطرون اليها في هذه الايام مصيبة عظيمة ورزيئة جسيمة على البلاد لانها وخيمة العاقبة تعيسة المآل - فان أمكن لنا ان نبدل احوال هذا الزمان بأحوال أزمنة آبائنا فلا بأس علينا ولا ضرر غير ما هنالك من تعاسة الجهل والا فقد آن لنا ان نتنبه من غفلتنا والسلام

هذا ولقد افترى الغربيون على الله كذباً اذ قالوا ان القرآن الشريف يوقف حركات التمدن وهذا القول ولئن يكن متعلقاً بفريق منا فان عاره عائد علينا جميعنا بلا استثناء لان من خضع لشريعة كان منها لا محالة فكأننا والحالة هذه كلنا مسلمون اذ ليس بيننا الا كل خاضع لاحكام

الشريعة الغراء . نعم ان أقوالهم من هذا النحو ليست مما يعتد به لأنهم قوم قد تركوا جانب الله وأنكروا الوحي فأصبحوا لا دين لهم حتى صار يسهل عليهم ان يختلقوا أقاويل على الكتب المنزلة ولا حرج ولكنما عار علينا ان نسمع ذلك القول ونطوي عنه كشحاً أينزل كتاب الله الذي هو ينبوع التمدن هذه المنزلة ونحن عن التحلي بدرر تعاليمه غافلون متى كان ذلك الكتاب موقفاً لحركات التمدن وقد أوجده من العدم في من لم يكونوا ليعرفوا للتمدن اسماً لولاه . ألم تسطع هنالك الفضيلة وتخفق رايات العدل والمساواة مما لا يقاس به هذا التمدن الحديث الذي يفاخرنا به اليوم أهل المغرب والذي لو لم يكن مزداناً بالحقائق الراهنة لما عد في جنب التمدن الاسلامي شيئاً يذكر اذ قد كان لذلك التمدن ويالهف الشرق عليه خصائص متناهية في الفضل لن تأتي بمثلها طبيعة تمدن في العالم بعده ـ هذا

ولا يخفى ان لكل من أدياننا العظمى أركاناً خاصة به كالاركان الخمسة الالهية التي بني عليها الاسلام غير ان هاتيك الاركان ليست هي الدين كله لان هنالك تعاليم كثيرة شائقة تزري باللؤلؤ والمرجان ولا يزدان الدين الا بها فان نحن أغفلنا أمرها جعلنا كتب الله هدفاً للامم الغريبة الذين لا يعرفونها لانهم يستدلون عليها بنا فتأمل .

اما وقد حان الفراغ من مواضيع الجمانة فكأني بمنتقد متعنت يقف هنا وقفة الباحث عن العيوب شأن الكثيرين في بلادنا . على انهُ لو نظر فيها بعين الرضى لا بعين السخط لتبين لهُ عرض الجمانة وأعجبه أمرها وحكم بلزومها على علاتها للوطن العزيز على انها لا تعدم من ذوي الذوق السليم من يعرف قدرها . ولعمري ان غرضها واضح بدليل انها اقتصرت على ذكر لزوم تعميم المدارس الاجبارية في البلاد بدون ان تتجاوزه الى ذكر

ما فوق ذلك مما هو من الحاجة بمكان فهي لم تكن الا لايضاح اضرار الجهل فقط وعليه فقد جاءت بالصغير من ذلك وبالكبير معاً لانه موضوعها الذي انشئت لاجله أليس التنبيه على الاهم مما لدينا من الاضرار والاكتفاء بالاشارة الى العلاج الناجع من خير الامور .

وليعلم كل منا ان نبذ التعصب الوخيم الذي هو خير واسطة للتقدم والفلاح قد اضحى امره محتوماً علينا ان لم يكن لمراعاة مصالحنا الوطنية فلدفع الشر عنا فلا بد لنا من الاخذ فيه قبل كل عمل والا فالنبق على ما نحن عليه من الجهل والخشونة متوقعين سوء المصير ولتقتصر كتابنا عن المناداة بالنهضة فانهم لا ينادون حياً .

الخاتمة

متى اتيت ايها القارئ على آخر الجمانة فلا تعجب منها ولا تستغربها لانها لم تجئك بشيء غريب وانما هي

منك واليك فهي عثمانية وطنية قد نخلت لك النصح ٠
ولا تضعها حيث لا يعود يقع نظرك عليها لاني لم اجعلها
صغيرة الحجم الا لتحفظها جيداً حتى ترسخ في ذهنك
رسوخاً يحدوا بك الى العمل بمقتضاها ٠ فما الفائدة ان تقرأها
مرة واحدة ثم تغفل امرها مكتفياً بكونك قرأت الجمانة
فقد تقرأ كتباً كثيرة ثم تغدو كأنك لم تقرأها بل قد تقرأ
كتابك المنزل الذي هو قاعدة سعادتك ثم تخرج الى
السوق ودماغك قد فرغ مما قرأته فالقراءة اذاً لا تفيد
بدون حفظ مقرون بالعمل ٠ احذر ان تصغى الى من يعلمك
بخلاف ما علمتك اياه الجمانة لانه شرير يريد ان يجعلك
حبالة لاغراضه الشريرة فاحترز ان تجعل نفسك آلة للاشرار
بل احترز ان تكون آلة لاغراضك الجائرة لانها تضلك
عن الحق وما من شيء يعدل بك عن السراط المستقيم
كالغرض ـ هو ذا فئة قد قامت بيننا تدعي خدمة الوطن

وما غرضها الا البذاءة والتطاول على من لا يجوز ان تمس كرامته لانها مقدسة من الله فلو كان غرضها هاتيك الخدمة لأتتها من أبوابها أيعقل ان الخدمة الوطنية تقوم بمس كرامة الملوك وملء أعمدة الجرائد التي هي مرقاة الادب والفضيلة باطالة اللسان وقبيح الكلام احذر ياهذا ان تعطي أذناً واعية لغير الصلاح لان الفساد قد دب فينا . حافظ على آدابك الشرقية فاذا أضعتها لن تجدها لان بيننا قوماً يخفونها عنك . اتق الله جهدك لان تقوى الله معراج الفضيلة . احترم سلطانك لان الله قد ولاه عليك وادع له بالنصر وطول العمر لانه عزك وملاذك بعد الله ادع للدولة العلية بالتأييد والبقاء لئلا تعيش تعيساً مستعبداً للامم الغريبة . تمسك بتقوى الله لان بها يستجاب دعاؤك اذا أنت اقتصرت في أعمالك الدينية على هاتيك الفروض كالصلاة ونحوها فلا تتوهمن انك صرت تقياً لان تلك

ليست الا ديناً واجباً عليك كما اذا كنت مديوناً لزيد من الناس بمبلغ من المال وأي فضل لمن يوفي ما عليه . « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » لان هذا هو أساس التقوى . عامل الناس بالحسنى ما استطعت لان حسن المعاملة خير ما تذخره لنفسك ولاولادك من بعدك ولا تقوى حيث لا قيام بالواجب نحو الناس . اصنع الجميل وافعل الخير مع كل انسان ولو عدوك لان ما من شيء ينزل بك الى حفرتك بسلام كالاعمال الحسنة . لا تنظر الى الناس والى أعمالهم بعين السخط لانك واحد منهم وما من أحد ينظر كذلك الا وهو شر من المنظور اليه . لا تفتش في غيرك عن خلة خفية تجعلها قذى في عينك لان الكمال لله وحده . فتش عما يأول الى اصلاح نفسك أتمادى ياهذا في المنكرات وتعير غيرك بما يعد بالنظر الى عيوبك فضيلة أتنظر البعوضة التي تحوم عليه ولا سبيل للتخلص منها

وتتغاضى عن الجمل الذي لديك وفي وسعك الابتعاد عنه .
قلع العين الشريرة أفضل من تفتيح عين الاعمى فاذا كانت
عينك كذلك خير لك ان تقلعها من ان تكون شريراً .
اجتنب الوقيعة وأغض عن السيئة وسامح ما استطعت
لانك انسان كسائر الناس . لا تفعل كل ما يمكنك فعله
لان ما كل ممكن بلائق . لا تتطاول في المعرفة على من
هو أعرف منك لان هذا هو الجهل بعينه . لا تكن
حكماً في دعواك لانك تحيد عن جادة السداد في أمر
نفسك . الناس مختلفون في الطبائع بحسب التربية
والتعود فتجد انساناً يظهر له الحق فيذعن له لانه تربى في
مهد الفضيلة وتجد آخر يحصحص له الحق فينفر عنه ويعمد
الى المهاترة وللمرء من دهره ما تعود . لا تفعل ما
يدل على سوء التربية لئلا ينفر منك الناس فتعيش بينهم
مبغضاً . ابتعد عن الشر واجتنب اسبابه واسع في الخير حتى

تكون ذا فضل محبوباً من الناس . اذا مرض ابنك او ماتت بهيمتك فلا تعاد جارك بدعوى ان عينه فعلت ذلك لان الانبياء الكرام لم يعلموا بالاصابة لجعلها وسيلة للشر بل لمقاصد دينية اوضحتها لك الجنانة . اتحد مع ابن وطنك فى الاخذ باسباب ترقية بلادك لان البلاد لا ترتقي الا بالاتحاد والتعاون . لاتترك ترقية بلادك للغريب لانه يقاسمك القسم الاكبر من خيراتها فتظل فقيراً . قدم صوالح وطنك على صوالحك الخصوصية لان البلاد لا ترتقي الا على هذا المبدء . لاتقل ماذا تهمني صوالح بلادي لانها اذا كانت منحطة تعيسة عادت عليك بالفقر مهما كنت غنياً فان لم تعد عليك عادت على اولادك اخدم وطنك بقدر جهدك لان من يخدم وطنه يخدم نفسه فان لم تجد هناك من فائدة لنفسك فسوف يجدها ابنك من بعدك وهي خير تراث تتركه له لماذا تغرس شجراً بعيد الثمر تموت

ولا تراه بعينيك أليس لابنك . لاتنتظر من الحكومة
ان تخلق لك الفلاح مغنما باردا تمد اليه يدك وانت قاعد على
وسادتك عاقفا رجلا على الاخرى لان الهيئة الحاكمة لاتقدر
ان تأتي بفرع واحد منه والمحكومون قعود . شمر للعمل
عن ساعد الجد فهي تساعدك وتقويك بما لديها من
الوسائط لان أحب شي اليها ان تراك ذا همة ونشاط
مثابراً على السعي وراء ترقية الصالح العمومي فى الهيئة
الاجتماعية . انفر من التعصب كما تنفر من الافعى لانه هو
الذي أقعدك على تلك الوسادة التعيسة وقطع عن وطنك
حقوقه عليك . احترز من أن يفصلك عن ابن وطنك
فاصل ديني لان لا سبيل لفلاحك بدون الاتحاد معه قلباً
وقالباً انبذ ياهذا كل اعتقاد باطل وخرافة فاسدة لان هذا
كله مضر بك في العقل والدين والشرف فيشينك بين
قومك ويجعلك تعيساً . كن أديباً تقياً لان زينة المرء آدابه

وتقواه ولا فخر بغير الادب والتوى . لا تجادل من كتابه منزل فان جادلته فجادله بالتي هي أحسن أي بالاحترام والوقار وخوف الله لانه نظيرك فان كنت تحسب لنفسك مزية عليه دينياً فهو أيضاً يحسب لنفسه كذلك لان المرء مطبوع فى حب دينه وعنده انه أفضل الاديان كلها ولا أخالك تشك بذلك فعلى مَ اذن تفاخره ويفاخرك أليس الابتعاد عن هذه المفاخرة أقرب للادب والتقوى اللذين لا فخر لك بدونهما وقد قال الله تعالى «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» . أقبل على مافي كتابك من الادب الديني لانه فخر الدين وبهاؤه أتغفل أمر التحلي بهاتيك اللآلئ الزاهرة التي قد رصع الله بها كتبه المنزلة وتماجد غيرك بالدين وانت لست ممن يتمجد الله بهم ألست انت عنوان كتابك عند من لا يعرفه فكيف يصدق تعظيمك له ومفاخرتك به

وانت عطل من حلاه افلا تظن انه يستدل عليه بك . كن
اديباً تقياً لان بغير الادب والتقوى لايمكنك القيام
بواجباتك نحو الله ونحو الناس . انظر في امر نفسك ودع
كلا وشأنه في دينه لان الله سبحانه لم يقمك وكيلا له
فانت ماذا يعنيك - هو ذا خليفة الله في ارضه وامينه في
عباده قد نشر في ممالكه المحروسة اعلام التمدن المؤذنة
بعدم المعارضة في الاديان وعنده اعزه الله ونصره ان
رعاياه الامناء على اختلاف اديانهم ومذاهبهم سواء فهم
عنده كالاولاد عند ابيهم فهلا اقتصرت ياهذا عن التداخل
في مالا يعنيك وهلا صحوت من سكرة الجهل وكففت
عن تخريب وطنك بيديك . اذا كان انبياء الله لم يقدروا
ان يهدوا من احبوا بدليل قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة
والسلام « انك لاتهدي من احببت » افتقدر انت ايها العبد
البطال ان تهدي من احببته . اتق الله وهذب اخلاقك

ولطف ذوقك وكن اديباً لان لاشيء يقربك الى الله ويحبب
بك الناس كالادب والتقوى. ليكن دليلك على خشونتك
استثقال الناس بك فاذا شعرت بذلك فاعلم حينئذ انك
من أهل الخشونة . لا تسل أحداً عن دينه ولا عن
شغله الا لامر يبعث على السؤال فان لم يكن هنالك
من باعث فالسؤال قبيح . لازم الادب والرزانة لانهما
فخرك وعنوان فضلك. تحمل نكبات هذه الحياة بالصبر
والشكر لان دنيانا دارشقاء . لا تعارض أحداً في شؤونه
الخصوصية لانه ادرى بها منك وأخبر. احذران تستهويك
هاتيك الفتاة الفاسقة التي مثلها لك الغاوون بدعوى انها
وطنية وان هي الا غريبة متلبسة تقصد النزغ والافساد
على ان جلالة مولانا السلطان الاعظم حرسه الله أعقل
من ان يأخذ بشأنها وصاحب البيت أدرى بالذي فيه
فلو أصغى جلالته لهاتيك الامور المغايرة لطبيعة البلاد

لكنت أكثر تخريباً لوطنك مما أنت عليه الآن . ادعُ لساعد الملك بالقوة ليظل قابضاً على زمام الاعمال بيده والا فالاحوال تزداد تعاسة . ان رجالنا قلال فلينتبه الغافلون ونحن انما جهال فليرعو الغاوون . تمسك ياهذا بآدابك الشرقية لانها خير ذخيرة لك أتأتي بالعوائد الغربية الى أرض المشرق وهي لاتزال على طبيعتها الموروثة عن الآباء والاجداد . لاتكن جاهلا لان الجاهل عدو نفسه فكم أحرى ان يكون عدواً لبلاده . اطلب العلم ما استطعت لان الجهل آفة الخير وليس من شيء في الدنيا شراً من الجهل لاتكفر أهل العلم لان الدين شيء والعلم شيء آخر . أقبل بفرح على الحقائق الدنيويه التي يكتشفونها لخير بني الانسان لانها سراج الحضارة والعمران . أنر عقلك وروضهُ في مباحثهم العلمية والادبية لانك بدون الوقوف عليها تكون أقرب الى الحيوان الاعجم منك الى الانسان

اشترك في الجرائد العلمية لانها خير ذريعة لنجاح البلاد. اشترك في كل جريدة وطنية أدبية لانها وسائط التقدم والفلاح أتبخل على من يأتيك بأخبار العالم الانساني وآدابه وفنونه من أقصى المشارق والمغارب بدراهم قليلة أقبل على مباحث العلماء والفلاسفة الا ماتراه منها متعلقاً بأصل الانسان وكنه عقله لان المباحث من هذا النحو مضرة بك دينياً فأعرض عنها كل الاعراض - لقد جاء في التوراة ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله فهل من شبهة في ان محاولة الوقوف على كنه عقل الانسان كمحاولة الوقوف على كنه الباري تعالى. حافظ على معتقداتك الدينية كل المحافظة لانها سعادتك في الدارين لاتعلق أعمالك الدنيوية بالدين لان كلا منهما غير الآخر فلك ان تعمل في دنياك كل ما تشتهي وتريد بشرط ان يكون دستورك تقوى الله. لاتقف بجهلك في سبيل المنافع

الوطنية ولا تدع غرضك يقف في سبيل الحق لان هذا
كله يغضب الله والناس . اقتصر على الحسن من عوائد
هذا العصر فقد مر بك ان هنالك أضراراً كثيرة لا تحتملها
أحوالك الحاضرة وهب ان لديك ما يحتملها فالاولى لك
تركها لانها تغضب الرب . اتخذ مامضى من حوادث
الغربيين في سبيل تمدنهم مثالا يدلك على اجتناء المفيد
واجتناب المضر كانك خارج من مدرسة للتمدن فتحصل
عليه اذ ذاك حصول خبير مجرب بلا تعب وتظل عقائدك
الدينية محفوظة . اجتهد ان تكون متمدناً لان التمدن يغرس
فيك الفضيلة ويقيك مما يشينك . لا تبخس المرأة حقها
الانساني لان الله قد خلق الانسان ذكراً وأنثى فالرجل
انسان والمرأة انسان فكلاهما سيان . لا تلق على عاتق
امرأتك الاخذ بأسباب الاتفاق كله وتجلس أنت جلوس
الآمر الناهي فان فعلت فليس هنالك بعلا وأهلا بل سيداً

وأمة . خذ معها بأسبابه لانها ليست هي وحدها مسئولة
عنه الا اذا كنت من القوم الظالمين . فضل تعليم ابنتك
على تعليم ابنك لانها غرسة الثمر الانساني واحذر ان تسلم
أمر تعليمها لمن لا تؤانس فيه كمالا لان عين التلميذ معقودة
بعين معلمه فالحسن عنده ما صنع والقبيح عنده ما ترك
احتذ مثال الغربي في طيباته واحذر ان تدنو من خبائثه
لانها مبيدة لك . دع معاقرة المسكرات لانها تضر بك
عقلا وجسداً ومالا وأدباً وديناً . لا تسل عن صفات
السكير لانه لا يكون الا عطلا . لا تكن كذاباً لان الكذب
شيمة اللئام . الزم الصدق في كلامك ولو مسك منه الضر
فان ضرك مرة نفعك مراراً . اذا كنت غنياً فاجتنب
البذخ في المصرف لان بذخ الغني ينغص على الفقير عيشه
ومايدريك عاقبة هذا التنغيص . اذا كنت ذا كف نديه
فحول نداها الى عمل الخير لان هذا هو البذخ الحقيقي

المقبول عند الله والناس . ليس المال الذي يزيد عن
حاجات المعيشة عند من عرف حقائق الامور الا لابتياع
المفاخر السامية . تقتنى الفضيلة بالبحث عنها والمثابرة
على طلبها ولكن المفاخر لاتقتنى الا بالمال . ليس البذخ
والترف من الفخر في شيء . التبذير والبخل كلاهما عار .
الكرم الحقيقي هو ما اتجه بجملته الى منفعة بني الانسان
اذا جادت كفك ببذل الدينار في ماهو فوق حاجات
الحياة فابذله في السبيل الذي يأمر به العقل وحب القريب.
اذا حبست مالك عن منفعة المعوزين ولم تبل رمق الظمآن
والماء ملء حوضك فأنت اذ ذاك بخيل لئيم . ليس من
رذيلة في العالم توازي البخل لانه رذيلة كبرى . الرجل
الكريم يقرض الله قرضاً حسناً . ويخلد لنفسه ذكراً
جميلا أما البخيل فهو عدو الله وعدو الناس ويكون
مبغضاً حتى من أهل بيته . يلذ المرء جمع المال ولكن

بذله في سبيل الخير ألذ عند من يعرف واجباته نحو الانسانية . توكل على الله في أمورك وأعمالك كلها لان على الله قصد السبيل

تذييل

لقد يظهر لمن يقرأ الجمانة ان ليس بيننا أفضلية دينية واننا جميعنا على اختلاف أدياننا سواء . والواقع غير ذلك لان القول بالافضلية لاحد أدياننا العظمى أمر واجب دينياً لامناص منه ولكن لما كان كل فريق منا يعزو الافضلية اليه وهو مدفوع الى ذلك بطبيعة دينه لم تر الجمانة بدّاً من ان تجيء بما جاءت به مراعاة لموضوعها الذي لم يكن ليتخطى حدود الاحكام الوطنية خصوصاً وان العقل البشري يعجز عن ادراك الحكمة الالهية التي دبرت هذا الخلاف الديني الواقع بيننا . على اننا اذا تتبعنا الاحكام الدينية على

نحو ماهو مقرَّر في عقولنا مع قطع النظر عن الغرض نجد ان الافضلية كائنة في ماتأخر مجيئه من أدياننا اذ لا يصح ان يأتينا نبيٌ بشريعة أقل أفضلية مما أتى به نبي قبله لاننا نعتقد بحسب ماتعلمناه وتسلمناه عن آبائنا وأجدادنا الذين درجوا قبلنا على رجاء القيامة العامة ان شرائع الله المقدسة تدرجت نحو الكمال شيئاً فشيئاً حتى بلغت مبلغها الاسمى بعد اذ كانت زمان نوح وأيام الخليل عليهما السلام في غاية البساطة . فبحسب هذا الاعتقاد العام يلزمنا القول بانها بلغت الكمال بواسطة من كان من الانبياء خاتمهم والا لزمنا ان ننكر التدرج المنوه عنه وفي ذلك ما فيه من الضلال - على ان المسيحي يعتقد ان الكمال الديني وقف حيث الديانة المسيحية ولعل الحقيقة غير ذلك . على ان الكمال قد لا يخلو ان يكون وقف هنالك من حيث الادب الديني لان الديانة المسيحية ليست في نفس الامر

الا شريعة أدبية خالصة تكاد من هذه الحيثية ان تكون فاقدة النظير . وأما من حيث التوحيد الالهي ووفرة الاحكام الدينية فالكمال متجه بجملته الى الاسلام مما لاشبهة فيه . والذي يتدبر التعليم الانجيلي لايجد هنالك مانعاً يمنع من الاعتقاد بصحة الرسالة الاسلامية البتة خلافاً لما يتوهمه المسيحيون بل قد يوجد ما يؤذن بصحتها وفي رؤيا يوحنا نبأ واضح لايتخلله شبهة الا اذا حال الغرض دون الوضوح هذا فضلا عما جاء به أشعيا وغيره من أنبياء بني اسرائيل لان من نبواتهم عليهم السلام ما يشير الى غير السيد المسيح مما ينطبق على حال من جاء بعده كل الانطباق . ولا يخفى ان الديانة الاحمدية قررت تكذيب كل ديانة تظهر بعدها وأوضحت بنصوص جلية ان صاحب رسالتها عليه الصلاة والسلام خاتمة الانبياء وآخر المرسلين ولكن لو بحثنا في التعاليم المسيحية

عن نص صريح يؤذن بما آذنت به الاسلامية لما وجدنا
سوى ما هو مذكور في الانجيل من مجيء مسحاء كذبة
مما اقتضاه الاعتقاد بمجيء السيد المسيح ثانية حتى لا يقوم
بعده من يدعي ذلك المجيء منتحلا اسمه وان وجد هنالك
غير ما ذكرنا فليس مما ينفي صدق النبوة عن حضرة
صاحب الرسالة لعدم انطباقه على حالته الشريفة عليه الصلاة
والسلام . على ان عقلاء المسيحيين لا يرون في الاعتقاد
بصحة الرسالة ما ينافي ديانتهم اذ ليس فيه ما يخرج المسيحي
من مسيحيته كما يزعم الجهلاء خصوصاً وان عدم تصديق
رسالة دينية عظيمة كهذه مما ينفر منه الطبع الديني ويأباه
الذوق السليم الا اذا أجمع الناس على انكار الوحي والعياذ
بالله . وعندي ان عدم الاعتقاد بصحة احدى أدياننا العظمى
يفضي الى عدم الاعتقاد بالكل على ان هذا مشاهد عياناً
فاننا لا نكاد نجد مسلماً واحداً عابثاً بالدين حتى نجد ازاءه

عشرة وعشرين من المسيحيين لان من يتقرر في ذهنه تكذيب ديانة عظيمة حقيقية صادقة يسهل عليه يوماً ان يقيس ديانته عليها لاقل منبه يدعو الى الاستخفاف بالدين خصوصاً في هذه الايام التي قد وفرت فيها أسباب الاستخفاف . ولعل الاكثرين من المسيحيين يجهلون هذه الحقيقة وربما ضحك بعضهم منها عند سماعها ولكنهم لو أدركوا حقائق الاديان العظمى وما بينها من العلاقات والروابط الكلية حتى كأن هنالك سلسلة طبيعية مستكملة حلقاتها لحكموا بوجوب الاعتقاد بانبياء الله كافة لانه أحفظ للايمان بالله وأسلم للشرف الديني - والحاصل فان ليس من غرض الجمانة الخوض فى هذا الموضوع الذي أوصلنا اليه ذكر الافضلية كما وان هذه أيضاً ليست من غرضها وانما غرضها وجوب الاغضاء عنها لان الفخر الديني بالآداب والتقوى ليس الا . ولا يخفى على البصير ما كابدته

الجمانة من التعب والعناء حتى تمكنت من افراغ موضوعها

المتعسر في قالب وطني مألوف يرغب فيه كل عثماني ويعده

من اشيائه . وهي ولئن تكن من فضلات الافاضل فانها

خرجت من عالم الغيب خروج العذراء من خدرها لاسيما

وقد كساها الاخلاص حلة لم ينسج على منوالها قط

﴿ تنبيه ﴾

قبل أن ينجز طبع هذا الكتاب اطلع عليه كثير من

الادباء فراق لهم ما حواه من الفصول المفيدة وأعجبوا بحضرة

مؤلفه وبموضوع كتابه فقرظوه ومدحوه . ولم أر الا

اثبات ما جادت به قرائحهم معتذراً الى من لم تدرج تقاريظهم

لضيق المقام وأظنني قمت بواجب الخدمة نحو حضرة

المؤلف الفاضل الذي لم يطلع على هذه التقاريظ لبعد

الدار بيننا فان اصبت في خدمته حسبي

اسكندر آصاف

﴿ قال حضرة الحسيب النسيب الكاتب الفاضل والشاعر المطبوع مالك اذمة الادب من طار صيته في الخافقين عزتلو محمد ولي الدين بك يكن الافخم ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع اخوانه الانبياء والمرسلين وعلى الآل والصحب والتابعين. فان أكثر احداث الشرق أتت بالتعصب الديني الذي جعله بعض البسطاء معواناً على التغرير واصطياد الفوائد حتى القيت العصى بين أولي الارحام وتمشى الشقاق في أوصال الممالك المتوائمة والمتجاورة فسرت النفرة بين الشعوب والقبائل الى ان خفيت

العواقب وخشيت الخواتيم فبينا نرى المحمدي يتودد الى المسيحي والآخر يتحبب الى الاول اذ ابتعد كل منهما عن صاحبه وأجفل منه اجفال الطريدة من صيادها وذلك ظناً بأن الاديان تفرق مابينهما وتأمرهما بعداوة بعضهما وساء ذلك الظن فقد رأينا في صدر الاسلام وهو في ريق شبابه ومقتبل صباه كيف سالم المسلمون غيرهم وفي مخاللة النبي صلى الله عليه وسلم للنجاشي والمقوقس عظة ناطقة وقدوة حسنة وكنا نحب ان يعرف أبناء هذا العصر المستنير أفقه بشمس الحضارة الآهل ربعه بأوانس المدنية ماسبق اليه القول فانالنا الدهر وسقياله ما كنانحبه فنهض من خيرة شباننا قوم من أولي البراعة والفصاحة والعقل والنبل يبينونه أوضح التبيين فأفادوا الجامعة نعمة الارتباط والاتحاد جزاهم الله خير الجزاء فبهم تسعد الاوطان ويتحد

الاخوان ولقد اطلعت على كتاب {الجمانة العثمانية} وكفى بالاسم دلالة على المسمى فاذا بها بيت القصيد لكل ماقيل في هذا الباب بل اليتيمة العصماء لكل مانظم من القلائد فيه جمعت الى رقة العبارة دقة الاشارة والى نزاهة القول جزالة تمثلها مثل الحكيم في صمته ونطقه وبعده وقربه تغني عن الكد في الاستطلاع والسعي في الاستكشاف فشكراً لمؤلفها المفضال البارع {جرجس افندي خولي} الذي خدم الجامعة العثمانية بكتابه هذا أجل الخدمة واسماها انه لجدير بكل ثناء خليق بكل مديح حري بكل تبجيل أكثر الله من أمثاله ووفقه لتعزيز مؤلفه بآخر وآخر وهكذا حتى تنفجر ينابيع فكرته أنهاراً يرتوي منها الصادر والوارد ماذرشارق وترنم طائر ان شاء الله تعالى

ولي الدين يكن

وقال حضرة العلامة المفضال الشيخ محمد بيومي الازهري الافخم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

«يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين من بعث بالملة السمحاء والمحجة البيضاء. القائل وهو الذي لا ينطق عن الهوى انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرء مانوى وعلى آله وأصحابه من حضوا على الوفاق والوآم. ونشروا في الارض أعلام العدل والسلام «اما بعد» فقد اطلعت على هذا الكتاب الموسوم «بالجمانة العثمانية» فالفيته منهلا يعذب وروده. وروضاً تفتحت على أغصان الفضيلة وروده. داعياً الى الوفاق ناهياً عن الشقاق. منطبقاً على مايريده الله من عباده.

من التحابب والتوادد على مقتضى هديه وارشاده . فان استعمال التعصب الذميم . مخالف لما جاء في شرعه القويم . فقد قال تعالى في كتابه الحكيم « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » وقال تعالى « ومن أصدق من الله قيلا . قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » والآيات فى ذلك كثيرة . والاحاديث مأثورة مشهورة . فان الاتحاد أساس العمران . والتفرق أصل الخراب والخذلان . يجزى الله مؤلفه أحسن ما يجازى به المخلصون وأثابه بما يثاب به الناصحون الصادقون . انه ولي النعمة . وله الفضل والمنة

كتبه

الفقير اليه تعالى

محمد بيومي

الازهري

